الملخص:

إن هذه الدراسة من خلال تجربة (ابن الريف، وابن الكاتب) للدكتور عبد الحميد بدران تسعى إلى الوقوف على طبيعة التداخل والتماهي بين السيرة الذاتية والرواية، وأوجه التشابه والاختلاف بينهما؛ إذ التنوع في التعبير والتداخل في أدواته، يعد صورة لطبيعة الحياة، التي تقوم على التباين والتداخل والتناقض في شتى مجالاتها، بمعنى أن ذلك التداخل القائم بين الأنواع الأدبية، هو بمثابة المرآة التي تعكس صورة الواقع، وهو ما يؤكد واقعية الأدب ودوره الفاعل في التعبير عن المجتمع وتصوير إيجابياته وسلبياته، فكما النفس البشرية التي تمر بمراحل متباينة، ومشاعر متداخلة في ذات الوقت، كذلك العمل الأدبي يخضع لما تخضع له طبيعة الإنسان والحياة، ويجري عليه ما يجري عليهما من التداخل، والتفاعل، والتلاقي.

وفي سبيل إجلاء هذا المفهوم، ولفت انتباه الدارسين إلى هذا المعين السردي الثرّ فقد استعرضت الدراسة معنى التداخل، وموقف بعض النقاد منه، ثم الحديث عن ميثاق السيرة الذاتية، والمطابقة بين المؤلف، والراوي، والشخصية، وأمارات ذلك، ثم الحديث عن الميثاق الروائي، وما فيه من خيال، وزمان ومكان، وشخصيات، ووعاء ذلك من لغة وأسلوب، ومن أهم ما توصلت إليه الدراسة مرونة الأنواع الأدبية وتقاربها، وأن العلاقة بينها علاقة تكاميلة، كما كشفت الدراسة عن مهارة الأديب في توظيفه للخيال وعناصر الفن الروائي، واستخدامها في إلقاء الضوء على مراحل مهمة في حياته، في بيان ماتع ولغة راقية وجذابة.

الكلمات المفتاحية: تداخل– النوع – الأدبي – ابن الريف– ابن الكاتب– بدران – ميثاق السيرة الذاتية – ميثاق الرواية.

The Summary:

This study, through the experience of (son of the countryside and the son of the writer) by Dr. Abdel Hamid Badran, seeks to identify the nature of the interacting and identification between the autobiography and the novel, and the similarities and differences between them. Diversity in expression and overlap in its tools, is a picture of the nature of life, which is based on contrast, interacting and contradiction in its various fields, meaning that the existing interacting between literary genres is like a mirror that reflects the image of the reality, which confirms the realism of literature and its effective role in expressing Society and its portrayal of its positives and negatives, just as the human soul is going through different stages and feelings that are interacted at the same time, so literary work is subject to what human nature and life are subject to, and what is happening to them of interaction, and convergence, and in order to explain this concept, drawing attention The study reviewed the meaning of the interaction and the position of some critics about it, then talked about the biographical character, the correspondence between the author, the narrator, and the personality, and the signs of that, then talking about the narrative character, and what it contains of imagination, time and place, and personalities , and a container of language and style, and one of the most important findings of the study is the flexibility and convergence of literary genres, and that the relationship between them is a complementary one. The study also revealed the writer's skill in employing imagination and the elements of fictional art, and using them to shed light on important stages in his life, in a bright statement and elegant and attractive language.

Keywords: interference - genre – literary - son of the countryside - son of the writer - Badran - the character of biography - the chacarter of the novel.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد..

إن التنوع في التعبير والتداخل في أدواته، يعد صورة لطبيعة الحياة، التي تقوم على التباين والتداخل والتناقض في شتى مجالاتها، بمعنى أن ذلك التداخل القائم بين الأنواع الأدبية، هو بمثابة المرآة التي تعكس صورة الواقع، وهو ما يؤكد واقعية الأدب ودوره الفاعل في التعبير عن المجتمع وتصويره إيجابياته وسلبياته، وآماله وآلامه، فكما النفس البشرية التي تمر بمراحل متباينة، ومشاعر متداخلة في ذات الوقت، كذلك العمل الأدبي يخضع لما تخضع له طبيعة الإنسان والحياة، ويجري عليه ما يجري عليهما من التداخل، والتفاعل، والتلاقي، والتماهي؛ ولذا فإن كثيرا من النصوص الأدبية يغترف بعضها من خصائص وأساليب بعض، فتجد نص السيرة الذاتية مثلا يغترف من خصائص وأساليب النص الروائي والعكس، كما لا تخطئ العين الناقدة التلاقي والتداخل بين النص السردي والنص الشعري، حيث اقترض الأخير الكثير من عناصر وتقنيات النص السردي.

ومن هؤلاء الأدباء الذين غاصوا في واقعهم الشخصي، وصوروه بطريقة أدبية فنية راقية، الأستاذ الدكتور/ عبد الحميد بدران [١]، في تجربته الذاتية (ابن الريف، وابن الكاتب) التي قدم من خلالها عملا أدبيا مفعما بروح التجربة والمغامرة، فاستطاع أن يجمع فيه بين حقائق حياته كسيرة ذاتية، وبين أخيلة الرواية، والبراعة في تحقيق التماهي بين الماضي والحاضر، وبين الواقع الشخصي والواقع الجماعي، بين الواقع والمتخيل، أو الحقيقة والخيال.

وهذا ما يجعلنا نتساءل: عن حدود الواقع الذاتي، وحدود المتخيل الروائي في تجربة (ابن الريف، وابن الكاتب)، وهو ما سيجيب عليه البحث – إن شاء الله–؛ وقد اخترت البحث حول تجربة (ابن الريف، وابن الكاتب)؛ رغبة مني في الاطلاع على هذه التجربة والاستفادة منها، أدبيا واجتماعيا، وأن هذه الدراسة– غير مسبوقة في حدود علمي– وذلك من أجل الوقوف على حقيقة الميثاق السير ذاتي الذي يعني بالضرورة حدوث حالة من التطابق بين المؤلف والراوي والشخصية الرئيسة؛ لإثبات ذاتية العمل وكونه سيرة ذاتية واقعية عن حياة الكاتب الخاصة، وكذا الوقوف على طريقة المؤلف في نسج الأحداث وبناء الشخصيات المحورية،

[١]– هو الأستاذ الدكتور: عبد الحميد محمد عبد الحميد بدران، ولد في حصة شبشير، طنطا، الغربية، جمهورية مصر العربية، أكاديمي مصري يعمل أستاذا للأدب ونقده في جامعة الأزهر، له كثير من الدراسات الأدبية والنقدية المنشورة في عديد من المجلات المصرية والعربية، وله عدد من الأعمال الإبداعية شعرا ونثرا.

ودور الزمان والمكان، وإبراز أبعادها المختلفة، وغير ذلك من التقنيات الروائية التي وظفها الكاتب مما يؤكد التماهي والتداخل بين النوع الأدبي فيها، معتمدا في ذلك على المنهج الفني.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين، فالمبحث الأول: عناصر السيرة الذاتية، ويشتمل على: ميثاق السيرة، وفيه: دوافع كتابة السيرة الذاتية، الصراع ونجوى الذات، الصدق والصراحة.

المبحث الثاني: الميثاق الروائي ويشتمل على: الحقيقة والخيال، الشخصية، الزمان، المكان، لغة روائية.

وأسأل الله العون والقبول وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وصحبه وآله وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

(في معنى التداخل)

إن الحديث عن تداخل النوع في تجربة (ابن الريف، وابن الكاتب) يقودنا إلى إلقاء الضوء على مصطلح تداخل النوع الأدبي؛ حتى يتهيأ القارئ لإدراك التفاعل والتداخل بين الأجناس الأدبية في هذه التجربة، والتداخل: " عبارة عن دخول شيء في شيء آخر بلا زيادة حجم ومقدار" [١]، ويقصد به هنا تداخل الأجناس والأنواع الأدبية فيما بينها؛ إذ: " القول بالتداخل بين الأجناس الأدبية هو الصورة المكملة لنقص الأنواع والتصنيفات، لكننا نلمس عند النقاد العرب وعيا بتمايز الأنواع والأجناس.. على أن القناعة الراسخة تظل في نظرنا متمسكة بميوعة الحدود بين الأجناس ودخول بعضها في بعض، وقدرة الكاتب المبدع من خلال التصرف في اللغة والأساليب والخروج بها من حال إلى حال وتغير منزلتها" [٢]

والمراد " بتمازج الأجناس أو امتزاجها هو صدور الأجناس الأدبية على اختلاف أنواعها وأنماطها وأشكالها عن أصل واحد أو سلالة واحدة بحيث نستدل في الجنس على مظاهر وأمارات دالة على الجنس الآخر " [٣]، بمعنى استعارة النصوص الأدبية بعضها من بعض، واتكاء بعضها على أدوات وأساليب بعضها الآخر؛ شريطة أن تكون هناك قواسم مشتركة بين الجنسين، وليس معنى ذلك الانقلاب على النوع الأدبي أو القضاء على هويته، بل بعثا للحركة والحيوية، والتشويق، والإثارة في النص؛ إذ لكل نص مواثيقه وعلاماته التي يتمايز بها كما سنرى.

والناظر لمصطلح (التداخل) يجده ميدانا للنقد والتنظير؛ نظرا للمرونة التي يتميز بها النوع الأدبي، وتفاعله مع عالمه ومحيطه، هذه المرونة التي تدفعنا إلى التساؤل: هل يمكن أن تتداخل الأجناس أو الأنواع الأدبية مع بعضها البعض في نص واحد؟ كأن تتداخل السيرة مع الرواية مثلا كما حدث في تجربة (ابن الريف، وابن الكاتب)، والجواب على ذلك يتضح في قول القائل: " إن التسليم بواقعة التداخل قد تم منذ أن أنتجت الرومنسية نصوصاً تمزج بين (المأساة) و(الملهاة)، بعد أن كانت نصوص المرحلة الكلاسيكية تحافظ على الحدود القائمة بينهما.. وتأكدت واقعة التداخل

---

(١) – معجم التعريفات (قاموس المصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ص ٤٩، ت/ محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، الإمارات، دبي، د ت.

(٢) –التفاعل في الأجناس الأدبية (مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة من القرنين الثالث، والسادس الهجري)، د. بسمة عروس، ص ١٧١، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ٢٠١٠م.

(٣) – السابق، ص١٤٧.

في العصر الحديث على لسان القائلين بأن (الرواية) هي ملتقى الأنواع الأدبية؛ أوهي ثمرة مزج جديد ومعاصر لكل الأنواع الشعرية، فهي تتقبل على قدم المساواة، عناصر ملحمية ودرامية وغنائية" [١]، وذلك انطلاقا من طبيعة الرواية الواسعة الفضاء التي: " تتخذ لنفسها ألف وجه وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل، مما يعسر تعريفها تعريفا جامعاً مانعا" [٢]، وهذا ما يفسر تداخل السيرة الذاتية مع الرواية خصوصا؛ إذ إن هناك قواسم مشتركة بين السيرة الذاتية والرواية، منها ذاتية الرواية، التي دفعت أحد النقاد [٣] إلى تخصيص فصل كامل في دراسته (تطور الرواية العربية) بعنوان (رواية الترجمة الذاتية)، كـ(عودة الروح لتوفيق الحكيم)، و(الأيام لطه حسين) وغيرها، وهي نماذج اعتمد فيها أصحابها على تجاربهم الذاتية.

ويرى بعض النقاد كالدكتور محمد صابر عبيد أن ظاهرة التداخل بين الأنواع الأدبية، ظاهرة جمالية إبداعية، وخصوصا تداخل السّيرة والرّواية والتقاءهما في الرّواية السّير ذاتية أو السّيرة الذّاتية الرّوائية، والتي هي في حقيقة الأمر " عمل سردي روائي يستند في مدوّنته الروائية على السيرة الذاتية للروائي، حيث تعتمد الحادثة الروائية في سياقها الحكائي اعتماداً شبه كلّي على واقعة سير ذاتية واقعية، تكتسب صفتها الروائية أجناساً بدخولها في فضاء المتخيّل السردي، على النحو الذي يدفع كاتبها إلى وضع كلمة (رواية)على غلاف الكتاب في إشارة أجناسية ملزمة للقارئ وموجهة لسياسته القرائية النوعية، ويقتضي توكيد سير ذاتية الرواية الحصول على إشارات، أو إلماحات، أو اعترافات، يدلي بها الكاتب في أية مناسبة كانت، تشير أو تلمح أو تعترف بالمرجعية السير ذاتية لعمله الروائي، حتى يكون الميثاق بين القارئ والكاتب ماثلاً وعاملاً في هذا المجال، وغالباً ما تخضع الرواية السير ذاتية لبناء سردي يماثل البناء السير ذاتي، خاصّة في التسلسل الحدثي السير ذاتي وعلاقته بالأزمنة والأمكنة والشخصيات الداعمة لموقف الذات السيرية الساردة، وهي تروي ذاتها السيرية الواقعية عبر جسر المتخيّل " [٤]

كما يرى الناقد (محمد عطية محمود) أن: "الالتباس بين السيرة الذاتية والرواية، أمر محمود وخادم للعملية الإبداعية، فهو الذي يمد العمل الروائي بحرارة الاندفاع والانطلاق في براح الحالة الإبداعية

---

(١) – تداخل الأنواع بين القاعدة والخرق (دراسة نظرية)، الدكتور لؤي علي خليل، ص١٥٣، مجلة جامعة دمشق– مجلد ٣٠، عدد ٣–٤ ،٢٠١٤م.

(٢)– في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، د عبد الملك مرتاض، ص١١، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.

(٣) – ينظر: تطور الرواية العربية الحديثة فثي مصر (١٨٧٠– ١٩٣٨)، د عبد المحسن طه بدر، ص٢٨٣،٣٠٢، ٣٧٦، دار المعارف، ط٥، ١٩٩٢م.

(٤)– تمظهرات التشكّل السير ذاتي، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، د. محمد صابر عبيد ص ١٤٠، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

المتسقة مع المضمون والحالة الإنسانية والإبداعية التخييلية والهندسية التي تنطلق من الذات، نحو الآخر/ الآخرين وتتمحور صانعة نسيجا ووشيجة قوية تعمل على إضفاء المصداقية الفنية برغم عدم إنكار دور براعة التخييل وأهميته في صنع العمل الروائي، فالروايات العظيمة والمؤثرة في تاريخ الكتابة لا نستطيع فيها رصد الخيط الرفيع جدا بين ما هو ذاتي سيري، وما هو ناتج عن التلاقح والخبرة الحياتية والتفاعل مع البيئة أو الوضعية الاجتماعية التي ينمو فيها العمل الروائي، فالعين الراصدة للمبدع ليست كافية تماما لملء فراغات الحالة السردية فيما بين التخييل والتأريخ للذات المتورطة شاءت أم أبت في هذه العملية التي لا تنفصل مكوناتها وعناصرها، لأنها حال الانفصال تفقد الكثير من عناصر الجذب" [١]

ومن هنا فالأنواع الأدبية لا تعرف الجمود والثبات، بل هي متغيرة؛ تبعا لتغير الحياة وتناقضاتها: " إن محاولةَ حصر النص الأدبي في نوع بعينه، صار يضَغطُ على تلقائية النص وتفاعلاته العميقة على المستوى التركيبي للنص من الداخل، ومن هنا غدت الفروقُ بين الأنواع الأدبية ضرباً من المجازفة والتعدي على الطبيعة الشكلية للنص، إن هذه الحدود التي تضبط النصوص وفقاً للأنواع لا تخدم النص بقدر ما تقلقه، وتدخله في دائرة التكلف والافتعال " [٢]

ولقد آمن كثير من المبدعين والأدباء بهذا التداخل، فجاءت نصوصهم حافلة بهذا التماهي والتزاوج بين النصوص الأدبية، ولعل الدكتور/ عبد الحميد بدران في تجربته (ابن الريف، وابن الكاتب) واحد من هؤلاء الذين تلونت إبداعاتهم بهذا؛ اعتقادا منه بأن التفاعل بين الأنواع الأدبية يزيد النص تشويقا، ومتعة، وإثارة، وجمالا، وخاصة السيرة الذاتية التي تعرض في ثوب الرواية وجمالياتها.

---

[١]– ينظر: مقال: السيرة والرواية، تدخل الخيال لخيانة الواقع، أحمد رجب، بتاريخ ٢٠١٨/٥/١٩م، موقع https:middle-est-online.com

[٢] – السرد في رواية السيرة الذاتية العربية، دراسة في البناء والتقنيات، ص٢١، فايز صلاح عثامنة، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الآداب، الأردن، بتاريخ/ ٢٠١٠/٧/٢١م.

المبحث الأول: عناصر السيرة الذاتية

ميثاق السيرة

تعد السيرة الذاتية المرَوّاة، أو المنسوجة في نسيج روائي، نوعا من أنواع الكتابة الأدبية الناتجة عن التماهي بين السيرة الذاتية التي توثق لحياة شخصية من الشخصيات، والرواية التي تتناول مجتمعا أو قضية من القضايا، فحينما يقوم الكاتب برصد أحداث حياته، والتركيز فيها على المجال الذي تتميّز فيه شخصيته في تدفق وتدرج بحيث لا تنحرف قليلا أو كثيرا عن الأحداث والوقائع التي مر بها، فحينئذ تكون السيرة الذاتية، وحينما تتصاعد الأحداث وتتنامى، وتتطور الشخصيات وتتغير، ويتأرجح الزمان بين الماضي والحاضر في انتظام، وعلى رأس ذلك الخيال والتصوير، والابتعاد عن التقريرية والمباشرة، واستكمال النواقص باختراعها، فحينئذ تكون الرواية.

فالسيرة الذاتية: " لم تعد تقف عند تلك الحدود التي ألفناها فيها في بداية نشأتها بصفتها نصّا سرديا يستّند على التاريخ والواقع، بل صارت تنزاح إلى معانقة أفق الخيال، والوهم والاختلاف، والانتقاء والحذف والمجاز والاستعارة والتّرميز، والكذب مع مصداقية التّجربة الفنيّة وأدبية الجملة وشاعرية دلالاتها، وحكائية عناوينها، وأسطرة متنها وما ينضوي تحت هذه الثيمات وغيرها.. ولا يعني هذا التداخل الحميمي والأصيل واللعبي والماتع بين السيرة والرواية أن يغدو وعي التناص الإبداعي ..نهجا مبتذلا، وإنما هو منهج جمالي متقدم على المستوى السردي المتجدد إلى حد بعيد من منظور أن الحياة نفسها – مع واقعيتها– قد تغدو من الناحية الترميزية وهما أو تخييلا أو بنية غرائبية أو أكذوبة، ومن ثم أكثر خيالا أو ثراء إبداعيا من الخيال نفسه" [(١)]، فالذي يحقق القيمة الأدبية أو الجمالية للسيرة الذاتية بقدر واقعيتها، ما تحفل به من جمال العرض، وحسن التقسيم وعذوبة العبارة، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات.

وفي الوقت ذاته يحدث هذا التداخل – بين السيرة والرواية أو بين الواقع والخيال– خلطا لدى المتلقي ويوقعه في لبس أهي رواية أم سيرة ذاتية؟ ومن ثم يصعب على القارئ تحديد هوية النص الذي يقوم بقراءته، وتبدو أهمية (الميثاق) في الفصل بين هذا التماهي الممتع، وذلك من خلال (الميثاق) الذي هو : " اتفاق مشترك بين المؤلف والقارئ على تحديد جنس ما يقرأ عبر التطابق المعلن بين المؤلف والشخصية وإقرار المؤلف إقراراً صريحاً لا لبس فيه بأن ما يكتبه هو

---

(١)– وهج السرد (مقاربات في الخطاب السردي السعودي)، ص٩٥، حسين المناصرة، إربد، عالم الكتب الحديثة،٢٠٠٩ م.

صورة مطابقة لحياته وبناء على هذا الإقرار يدعو المؤلف قارئه إلى التعامل مع النص على أنه سيرة ذاتية [١]

لذا فأول ما: " يتبادر إلى أذهاننا عند دراسة أية سيرة ذاتية أن نكشف عن الميثاق السيري الذي يعني تحقق الوحدة أو التطابق بين المؤلف والراوي أو الشخصية الرئيسة" [٢]؛ إذ الميثاق دليل القارئ لتحديد هوية النص حينما تتداخل الأنواع، وذلك من خلال اعتماده على: " المواثيق والعقود التي يبرمها الكاتب مع المتلقي أبرزها العنوان، والتقديم، والإهداء، وضمير الخطاب، وغيرها من الأفعال الخطابية أو المكونات النصية التي تؤدي وظيفة التواصل مع القارئ" [٣] فالسيرة الذاتية لا بد أن تتضمن إفصاحا أو إشارة من الكاتب للقارئ، بأن ما يكتبه عبارة عن معلومات حقيقية تتعلق بحياته؛ حتى لا تختلط لديه الأنواع والأجناس.

والقارئ لـ(ابن الريف، وابن الكاتب) يجد نفسه أمام عملين يتأرجحان بين السيرة الذاتية والرواية، وسيكشف الباحث عن هذ التداخل والتماهي من خلال هذه الدراسة، أولا: مواثيق السيرة:

أ- العنوان

ويبدأ هذا الميثاق بـ(العنوان) فالعنوان من السمات الأولية التي تميز العمل الأدبي وتوضح هوية النص، وشخصية صاحبه وقائله خاصة في السيرة الذاتية، إذ يشكل العنوان عنصراً أساسياً في النص ولا سيما النص النثري [٤]، فهو المفتاح الإجرائي الذي يمكن من خلاله الولوج إلى عالم النص وكشف أسراره، وهنا نجد أن الدكتور (عبد الحميد بدران) في تحديده للعنوان في الكتابين الخاصين بسيرته يركز على نقطتين أساسيتين هما علاقته بالمكان (الريف)، والإبداع (ابن الكاتب)؛ إذ الريف يتغلغل في نفسه ووجدانه، وهو الطاقة التي تدفعه إلى الكتابة والإبداع بما فيه من مظاهر الصفاء والنقاء والجمال: " فعملية الربط بين السيرة الذّاتية وعنوانها وكاتبها حتمية بحكم طبيعة النّوع الأدبي، وفنيته في الوقت نفسه" [٥]

---

(١) – ينظر: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي: فيليب لوجون: ص ٤١.

(٢) – وهج السرد (مقاربات في الخطاب السردي السعودي)، حسين المناصرة، ص٩٩.

(٣)– وهج السرد (مقاربات في الخطاب السردي السعودي)، ص١٠١.

(٤) – ينظر: السيميوطيقا والعنونة، جميل حمداوي، ص ٩٨ مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٥، العدد ٣، لسنة ١٩٩٧م.

(٥)–السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، أمل التميمي، ص ١٩١، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ٢٠٠٥م.

وحينما ننظر إلى العنوان (ابن الريف، وابن الكاتب)، من حيث الميثاق والدلالة على ذاتية العمل والتعبير عن حياة قائله، نجده من حيث الظاهر عاما وبعيدا عن السيرة الذاتية، ولعل ذلك راجع إلى ابتعاد الكاتب عن المباشرة والتقريرية التي تنافي الإبداع، لكنك حينما تقرأ النصوص التي وضع لها العنوان الرئيس وجدت الرباط بينهما واضحا والعلاقة قوية، فابن الريف هو هو الدكتور(عبد الحميد بدران)، وكذلك الحال في كتابه (ابن الكاتب)، فابن الكاتب هو (ابنه) الذي يخاطبه ويرى فيه علامات النجابة والإبداع، والقدرة على الوصف والتعبير، والذي يشاركه في كثير من الصفات؛ ولذا فالإشارات التي يرسلها العنوان تدل على حياة صاحب النص، بل تشير إلى حضور ميثاق السيرة الذاتية، حيث أطلق العنوان وأراد به ذلك الموقع من الذاكرة (الريف)، الذي تجمعت فيه أيام الطفولة، وأولى تجارب الإبداع، وتجارب الأفراح والأحزان والأشواق والمخاوف، التي أخذت تتوالى عليه.

أما عن العناوين الداخلية فقد جاءت في كتاب (ابن الريف) مرتبة كالتالي:(أيام الطفولة، ابن الريف، الدروس الخصوصية، على أعتاب الجامعة، حرب الشائعات، عمتي الحاجة، ابن بثينة، الحب الأول، الرسالة، زملاء الفصل، القطار، الرحلة)، وفي كتابه (ابن الكاتب) جاءت على هذا النحو أيضا: (الكتابة، الرسالة، الطفولة، الذكريات، الأزهر، الريف)، وكلها –كما ترى– تشير في مجموعها إلى حكي واسترجاع لأيام الطفولة، والدراسة، والصحبة، من خلال الذاكرة؛ مما يؤكد انتماء النص إلى السيرة الذاتية.

ب– الإهداء والتقديم:

تظهر أهمية (الإهداء) بوصفه ميثاقا من المواثيق الموجهة للنص السير ذاتي، إذ هو عتبة نصية مهمة تسهم في إضاءة النص وتحديد هويته، وتشير بشكل مباشر إلى أن النص سيرة الكاتب الذاتية، ترى ذلك في قوله: " إلى كل الذين يحنون مثلي إلى الماضي كما تحن الأم لرضيعها، وكل الذين يبحثون عن أشعة الإنسانية الصافية، التي كانت تنبعث من براءة الطفولة في قرانا المصرية كل صباح، وكل أبناء جيلي الذين تربوا كما تربيت، وتأدبوا كما تأدبت، ولعبوا في الشوارع والحارات كما لعبت " [(١)]

ففي إهدائه – كما رأيت– يخص شريحة معينة من الناس وهم الذين يشاركونه عشق الريف وصفاءه، وفطرته، فميثاق الإهداء يؤكد منطق الحكي الذي هو أساس السيرة الذاتية، ومنطق استعادة الحكاية واسترجاع أيام الماضي، والطفولة، والحنين إليهما، فهو يهدي حكايته لكل أبناء جيله ورفاقه ممن يعشقون الريف ويقدسون صفاءه.

---

(١)– ابن الريف، د. عبد الحميد محمد بدران، ص٣، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٨م.

لكنه في تقديمه لـ (ابن الكاتب) كان أكثر شفافية ووضوحا حيث يقول: " ولم يدر في خلدي وأنا أخط أولى صفحات (ابن الريف) أنني في طريقي لإنجاز سيرة بطعم الرواية، بعد أن أيقنت أن الصدق المطلق في سرد السيرة الذاتية يعد ضربا من ضروب الخيال، وأن كاتب السيرة عليه أن يمزج الحقيقة بالخيال حتى يتمكن من سرد الحقيقة منسوبة لشخوص غير الذين قاموا بها، طالما أن عمله سيقابل بأريحية لم يكن مثقال ذرة منها ليتحقق لو قال فعلتُ أو فعل فلان " [١]

فالكاتب ينص صراحة على أنها (سيرة ذاتية) ويقر إقرارا بذاتية عمله (ابن الريف، وابن الكاتب)، ومن ثم يرجح هذا الميثاق كفة السيرة الذاتية في الجوهر(الحقيقة)، وكفة الرواية (الخيال) في المظهر، وهو ما يؤكد تداخل النوع (السيرة والرواية)، وتلبس الحقيقة بالخيال حتى يستطيع الإفصاح عن مكنوناته.

جـ – ضمير المتكلم:

إن توظيف: " ضمير المتكلم (أنا)، في هذا النوع من الكتابة، يشير إلى خصوصية الذات ووعيها بوجودها المتفرد؛ لأنْ يكون هو هو وليس شيئا آخر" [٢]، وفي السيرة الذاتية لابد من التطابق بين المؤلف، والسارد، والشخصية، ويتحقق هذا التطابق غالباً من خلال استعمال (ضمير المتكلم)، الذي يحيل إلى الاسم القائم على الغلاف(عبد الحميد بدران)، حتى وإن كان هذا الاسم غير وارد في النص مما يدفع النص السير ذاتي إلى التخييل الروائي، ومن ثم تأتي أهمية هذا الضمير الذي: " يحيل على الذات مباشرة، ويقلل المسافة الفاصلة بين السارد والشخصية المركزية، ويسمح للسارد من النوع السير ذاتي أن يتحدث باسمه الخاص أكثر مما يسمح للسارد المحكي لضمير الغائب، وذلك بسبب تماهي السارد مع البطل" [٣]

"وليس سواء ضمير يسرد ذاته وآخر يحكي سواءه، ضمير منطلقه من الداخل نحو الداخل طوراً ومن الداخل نحو الخارج طوراً، وضمير آخر منطلقه من الخارج نحو الخارج طوراً، ومن الخارج نحو الداخل طوراً " [٤]، ومن ثم يصير (ضمير المتكلم) أكثر تعرية لدواخل النفس، وأكثر

---

(١) – ابن الكاتب، د. عبد الحميد محمد بدران، ص١، المؤسسة العربية للعلوم والثقافة، ط١، ١٤٤١ هـ / ٢٠١٩م.

(٢)– ينظر: سرد الذات –فن السيرة الذاتية، عمر منيب إدلبي ص٦٠، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ٢٠٠٨ م.

(٣)– سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات) خليل شكري هياس، ص١٢، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – ٢٠٠١م.

(٤)– سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات) خليل شكري هياس، ص١٣.

دلالة على ذاتية السرد، وذلك بما له من قدرة على التذكر، والاسترجاع، والتحليل، والاستبطان الذاتي أو المباشر للشخصية الرئيسة.

وهو ما فعله الدكتور (عبد الحميد بدران) في كتابه (ابن الريف) حيث اتخذ ضمير المتكلم صوتا ناطقا بهمومه وأحلامه، ومراحل حياته، وما مرّ به من مواقف وأحداث وشخصيات في زمن مضى، فتراه يقول: " أحمد الله أنني لم أكن أحد أبناء الطبقة المتوسطة، فربما لو كنت أحد أبنائها لما كنت حريصا على الجد في تحصيل دروسي، ولما كانت دعوات أمي تحاصرني مع كل أذان تسمعه، وربما ما كنت عُدت بالذاكرة يوما ما إلى حيث طفولتي المعذبة، إلى أحلى عذابات الدنيا، حيث تتعامد أشعة الشمس في بلدتي على أبناء الفقراء، لتمنحهم طاقة لا يقدر على تحملها أبناء الأغنياء مهما كانت قوة مظلاتهم وصلابة أجسادهم.

أحاول الرجوع بذاكرتي إلى الوراء حيث المدرسة الابتدائية ذات الطوابق الثلاثة، إلى حيث زملائي الذين نحتت صورهم بجميع تفاصيلها في مخيلتي، على الرغم من أننا لم نجتمع بعدها في أي فصل دراسي، لقد كان هذا المكان أول عهدي بالدنيا التي تمثل لي ما بعد الحارة التي ولدت فيها" (١)

فكما ترى يقوم بناء السرد في (ابن الريف) على ضمير المتكلم المفرد الذي هيمن على معظم صفحات الكتاب، وبذلك يصير الراوي (عبد الحميد بدران) متكلما ومؤلفا ومنتجا للقول، ومما لا شك فيه أن صيغة المتكلم –كما ذكرت– هي أكثر الصيغ دلالة على التماهي والتطابق بين المؤلف والسارد والشخصية، التي استقطبت نحوها الشخصيات والأصوات الأخرى، فتراه يقدم نفسه من البداية بأنه على دراية كاملة بالأحداث التي يقوم بتدوينها، مما يؤكد أنها قصة حياته.

أما عن الجزء الثاني أو الحلقة الثانية من سيرته الذاتية في كتابه (ابن الكاتب) فقد حفل بتبادل رشيق وممتع في مواقف الضمير السارد ومواقعه، ففي الكثير من المواقع والمواقف السردية اتكأ الكاتب على (ضمير المخاطب) فانقسمت الذات الساردة (عبد الحميد بدران) إلى نصفين أحدهما يشتغل على الآخر، فيسرد لولده ويعيش معه في ذات الوقت تلك الذكريات التي اشتركوا جميعا فيها، و" قد يتقنّع الضمير الأول بضمائر أخرى حسب المتطلّبات والشروط التي تحكم كل قصيدة سير ذاتية " (٢)

---

(١)– ابن الريف، ص٥، ٦.

(٢)– تمظهرات التشكّل السير ذاتي، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، د. محمد صابر عبيد ص ١٣٩، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

وتستطيع أن ترى ذلك في قوله:" أعلمُ يا بني أنك تتوق لأن تكون ملء السمع والبصر في حياتنا الأدبية يوما ما، وأعلم أن هاجس الإبداع لم يزل يراودك مذ طلبت منك مقالا تصف فيه شقتنا الجديدة بالمملكة العربية السعودية، فجئت ببيان ناصع وخيال خصب متين، وتجاوزت وصف الشقة بقلمك الساحر الذي استحال ريشة فنان ترسم وتعبر في آن معا، فوصفت البيت والجيران والبقال والمغسلة والخباز والأسواق الكبيرة، ومدرستك التي كانت تكرمك كل أسبوع.." (١)

فالكاتب كما –تلاحظ– انفصل عن ذاته، وأحالها إلى شخصية موضوعية مستقلة تتحاور مع شخصية أمامه (ابنه)، الذي يرقبه في تأن وتؤدة ويرقب ذاته أيضا، ويربط بين طفولته وطفولة هذا الابن، وبذلك انضم إلى صفوف القراء كي يتتبع معهم بطله، وإن كان هو البطل، وقد أتاح له هذا التنوع أو الانزياح من ضمير المتكلم إلى المخاطب الابتعاد عن تضخم الذات، وتحقيق المتعة والتشويق للقارئ، الذي أخذ يتابع هذه المواقف والمحاورات.

وفضلا عن ذلك يمكن أن يقال إن الدكتور (عبد الحميد) أغفل اسمه في كتابه (ابن الكاتب) في إشارة منه إلى القارئ أنه هو الذي يتحدث إليه، على نحو يقنعه بأن الضمير المستعمل فيه، إنما يعود على الاسم الموجود على الغلاف (عبد الحميد بدران) فهو يحكي ذكرياته المشتركة بينه وبين ولده الذي يرى فيه صورته وطفولته.

كما أن استخدام الكاتب لضمير المخاطب لا يعني اختفاء ضمير المتكلم، فهو حاضر في السرد أيضا، يذكر الأحداث ويعلق عليها وينسقها: " ولطالما كانت سبيلا لعقوبتي وأنا طفل مثله، لكنني لن أقسو عليه كما كان يقسو عليّ جدك، لأن جدك عدّل من سلوكه حين قال لي في المرحلة الثانوية:(من أفسد شيئا مرة، سيصلحه بإذن الله في المرات القادمة)

لقد أفلحت في حرف كثيرة، تعتمد على المهارة وإعمال الفكر، فقد بدأت بتجليد الكتب وصناعة الأحذية والشنط، واجتهدت كثيرا في أعمال الحياكة والسباكة والبناء، كما أزعم أنني كنت طباخا جيدا فيما تعلمته من أمي، وفلاحا جيدا فيما سمعته من نصائح أبي، ودائما ما كنت أدهش أمي عندما أميز لها البيض الذي يحمل أجنة الدجاج والبط والأوز، أو أميز لها الذكر من الأنثى في مرحلة مبكرة، وأنتظر كلماتها التي كانت تسعدني وقتها، فأحس بنشوة علوية تدفعني إلى المزيد: سبع صنايع.. ربنا يحميك يا ضنايا " (٢)

(١) – ابن الكاتب، ص٥.

(٢)– ابن الكاتب، ص١٥.

فضمير المخاطب كما رأيت يستلزم حضورا لمتكلم يحاور، ويخاطب، ويفسر، ويعلق، لذا يمكن القول إن ضمير المتكلم المفرد يتيح للمترجم لذاته إمكانية تحقيق التطابق بين المؤلف، والشخصية، والسارد بصورة مباشرة، مما يؤكد توافر شروط السيرة الذاتية ومواثيقها بحد كبير في (ابن الريف، وابن الكاتب)، وأن ضمير المخاطب والغائب يحيلان أيضا على الكاتب بطريقة غير مباشرة، ويؤكدان استرجاع الكاتب لقصة حياته، وخاصة بعد أن علمنا ذلك من خلال القرائن السابقة (العنوان، والإهداء، والتقديم).

ولعل استخدام الكاتب لضمير المخاطب في كتابه (ابن الكاتب) يعود إلى رغبة الكاتب في الاقتراب من قارئه وابتعاده عن الذاتية الفجة، وكأنه يوجه خطابه إلى قارئه بصورة غير مباشرة، وهو ما يمنح النص توسعا وشمولية، خصوصا وأنه في كتابه المذكور أعلاه، يعالج مراحل الكتابة والإبداع في حياته، فهو يشرك قارئه من خلال هذا الضمير الحواري ويوجهه إلى تقنيات الكتابة والإبداع.

د-النص:

وبتأمل النص نجد إشارات صريحة وواضحة، تؤكد انتمائية النص إلى السيرة الذاتية من جانب، وأن النص ما هو إلا صورة من حياة الكاتب من جانب آخر، تجد ذلك في قوله مثلا عن الحارة التي كان يعيش فيها مع عائلته، والمعروفة بحارة (البدرانية) :" وذكرت صنيع جدك في تعليمنا ـ تهادت إلى مخيلتي صورة (جدي توفيق) وهو يتكئ على أريكته ومن حوله أحفاده الذين يكبروننا بسنوات، فأعيد إلى ذهني صورة بقعة من أحب البقاع إلى نفسي في مرحلة من أحب مراحل حياتي، إنها حارتنا القديمة (حارة البدرانية) " [1]، فالكاتب -كما تلاحظ- يستعيد من خلال ذاكرته ملعب الصبا ومرتع الشباب ومسقط الرأس، وهي تلك الحارة التي يطابق اسمها اسم المؤلف المعلن على غلاف الكتاب.

وتضمّن النص كذلك تلفّظاً صريحاً بلقب (البدرانية) أثناء حديثه لولده عن جده حيث يقول: " كان جدك أحد البدرانية الذين من الله عليهم بوفور العقل وحصافة الرأي، حيث أتم حفظ القرآن صغيرا رغم أن أحدا في أسرته لم يتح له أي قسط من التعليم، لكنه فكّر وقدر، وكل أمله أن يرانا شيئا مذكورا " [2] فوالده يحمل لقب (البدرانية) وهو مطابق لاسم الكاتب على الغلاف.

ونص (ابن الريف) تضمن هو الآخر إشارات تدل على التطابق بين، المؤلف، والسارد، والشخصيّة، حيث ضمنه الكاتب بإشارات تزيد القارئ قناعة، بأن ما يكتبه هو سيرة الكاتب وحياته،

(١)- ابن الكاتب، ص٧٧.

(٢)- ابن الكاتب، ص٥٩.

وذلك كحديثه عن أيام الدراسة والتحاقه بالجامعة واسترجاعه لتلك الذكريات أثناء لقائه بأحد الزملاء: " ياه ... وصلت فين في التعليم؟

. أنا معيد في الجامعة.

. ما شاء الله، تستاهل كل خير. وقبل أن أستغرق في ذكرياتي، حين كنا نجلس في فصل واحد في المرحلة الثانوية، وكل طموحنا أن نصبح معيدين في الجامعة، وقبل أن أتفوه بكلمة، جاءني رده وهو يعيد ترتيب زجاجاته الفارغة في الصندوق: كانت أحلام يا دكتور، اضطررت إلى الكسب بعد وفاة الوالد من أجل أمي وإخوتي" (١)

ومن ذلك أيضا:" ومع إذاعة موعد المناقشة، عرف الفرح الحقيقي طريق بيتنا، وأقبل الأحبة من كل صوب، وتهادي إليّ صوت عمتي الحاجة، ووجهها يكاد يضيء من الفرحة، وهي تنزل صندوق المياه الغازية من فوق رأسها كفتاة عشرينية: ألف مبروك يا نور عيني.. ألف مبروك يا دكتور.. أنا نفسي في اليوم ده من زمان.. أنا فرحانة كأني رايحه الحجاز.. أي والله.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تقول لي فيها عمتي (يا دكتور)، بدلا من (يا ولد)، وكانت عاصفة من الزغاريد قد هبّت مع دخول خالتي من باب البيت، وما تزال على عهدها في اصطحاب ابنتها الجميلة التي لم تكن بمفردها هذه المرة، فقد كانت تحمل طفلتها بين يديها، وقبلتني خالتي كالعادة، وأشارت إلى ابنتها قائلة: قرّبي يا بنت سلمي على (أخوك) الدكتور " (٢)

فحديثه عن الدراسة والالتحاق بالجامعة والعمل بها، والحصول على الماجستير، ثم الدكتوراه وكل ما تقدّم من إشارات تدل بجلاء على التطابق التام بين الكاتب والشخصية الرئيسة، وبذلك يتحقق عنصر من عناصر السيرة الذاتيّة في كتابيه (ابن الريف، وابن الكاتب).

ومن هذه الإشارات الواضحة، قوله: " وأنا أعود بالذاكرة إلى حيث معهدنا بمنطقة (سيجر)، حيث نضطر في كثير من الأيام إلى الوقوف مع المتأخرين لفظا ورتبة جزاء جريمة لم نكن في أي يوم سببا فيها " (٣)، فالمعهد هو المكان الذي تلقى فيه تعليمه، والمنطقة (سيجر) هي الاسم الحقيقي للمكان الذي يتواجد فيه المعهد بجوار الريف الذي عاش فيه.

ومنها حديثه عن جده: " بينما لم يكن أطفال الشارع قاطبة يملّون الذهاب إلى بيت (جدي توفيق)، الذي لم يعبس في وجه أحدنا يوما من الأيام... وكان (سيدي توفيق) مصدر الحنان الدائم في شارعنا الصغير، الذي لا يقطنه إلا كل منتسب لعائلتنا، كان وجهه يشع نورا لا أعلم مصدره

---

(١)- ابن الريف، ص١٢٦.

(٢)- ابن الريف، ص ١٠٠، ١٠١.

(٣)- ابن الكاتب، ص٩٤.

على وجه الدقة، فهل كانت ناصيته ولحيته وأسنانه البيضاء؟، أم أنه نور القران الذي يحمله في صدره؟، ويرى في أحفاده خير رسول يؤدي له أمانة العلم، أم أنها الصدقات التي كان يخرجها غير منتظر جزاء ولا شكورا من أحد؟،أم أنه حب أطفال الحارة " [١]

ويمكن القول إن شخصية الدكتور/ عبد الحميد بدران، هي شخصية المؤلف، وهي شخصية السارد، الذي يتولى قيادة سرد الأحداث، وعرض المشاهد، ووصف الأماكن والأشياء، وهي الشخصية الرئيسة والفاعلة، وهي أداة توصيل المعلومات والأفكار، وتحليل المواقف والأحداث، وهي الشخصية التي تدور في فلكها الشخصيات الأخرى، وفي ذات الوقت ترتد إليه ردود أفعال الآخرين فتترك أثرا في حياته.

[١]- ابن الكاتب، ٧٨-٧٩.

دوافع كتابة السيرة الذاتية لديه

لماذا كتب الدكتور (عبد الحميد بدران) سيرته الذاتية؟

تتنوع دوافع كتابة السيرة الذاتية بتعدد الذات ووجهات النظر، وهو ما يؤدي إلى التعدد والتنوع في الدوافع والأسباب فهي تختلف من كاتب إلى آخر، إذ لكل كاتب دوافعه الخاصة للكتابة، التي قد تلتقي بشكل أو بآخر مع دوافع الآخرين، ويذهب بعض النقاد إلى أن المترجمين لأنفسهم، كانت تحفزهم في كتاباتهم بواعث قوية دفعتهم إلى الكتابة، وبناء على ذلك قسم أحدهم التراجم الذاتية في الأدب العربي إلى عدة أنواع أبرزها:(التبريرية)؛ وهي ما كتبت للدفاع أو الاعتذار كترجمة (حنين بن إسحاق)، أو(الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي) من الحياة، والتعبير عن مذهب أو سلوك خاص مثل (الغزالي) في (المنقذ من الضلال)، أو(التخفف من ثورة أو انفعال) كما فعل (أبو حيان) في كتابه (الامتاع والمؤانسة)، أو (تصوير الحياة المثالية) كما فعل عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه (لفتة الكبد في نصيحة الولد)، أو تصوير الحياة الفكرية كما فعل (الرازي والسخاوي) أو(الرغبة في استرجاع الذكريات) مثل كتاب (الاعتبار) لـ(أسامه بن منقذ) [١]

ويذهب بعضهم إلى أن من دوافع كتابة السيرة الذاتية أيضا الشعور بالظلم، والاضطهاد كما جاء في كتاب (الأيام) لطه حسين، وقد يهدف الكاتب من وراء تدوين سيرته الذاتية أن يقدم للقراء أنموذجاً واقعيا، يتعلمون منه ويأخذون منه العبرة والعظة كما جاء في سيرة أحمد أمين (حياتي)، أو إبراز حياته العلمية، كما جاء في كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة، إذ أورد العديد من التراجم لعلماء العرب مثل ابن الهيثم وابن سينا [٢]

وعلى: " الجانب المقابل يقف ميثاق آخر، وهو الميثاق الروائي الذي يلجأ إليه الكاتب للتعمية، أو المواربة في تدوين سيرته الذاتيّة، لما للسيرة من تبعات اجتماعيّة، ومواقف تتعلق بالشخصيات التي تُذكر في النص، وكشف لأسرار لم تكن ظاهرة للعلن، وكلها أمور لا تخص المؤلف فحسب، إنما تتعلق بأناس تربطهم بهذا المؤلف علاقات، ووشائج، وهذا ما منع الكثيرين

---

(١)- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبد الدايم، ص٣٣-٣٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٥م، بتصرف.

(٢)- فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، د. عبد اللطيف الحديدي، ص١٤٩-١٥٩، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م بتصرف.

من تدوين سيرهم الذاتيّة، أو اللجوء إلى الإعلان عن ذلك، فتقنّعوا وراء التقنيّة الروائيّة، وعرضوا تاريخ حياتهم دون الإعلان عن ذلك مباشرة " [١]

وبتتبع سيرة الدكتور (عبد الحميد بدران) الذاتية في كتابيه (ابن الريف، وابن الكاتب)، نجد دافع الكتابة الذاتية لديه يتمثل في: العودة إلى البداية، واسترجاع أيام الطفولة والبراءة، واستنشاق عبير الريف، والحنين إليه واستحضار أيام الصفاء والنقاء الإنساني، فدوافع الكتابة لديه تقوم على فكرة التلذذ بتذكر الماضي واستحضاره بكل ما فيه، والحديث عن تميزه بين أقرانه، وهذا لا يعني اقتصار الكتابة الذاتية لدى كاتبنا على تلك الدوافع دون غيرها، فوراء كل سيرة ذاتيّة "حافز يلحّ إلحاحاً على صاحبها أن يسجلها، وحين يبلغ هذا الإحساس مستوى من النضج في نفس صاحبه لا يستطيع معه إلاّ أن يصوّر ما تردد في نفسه من أصداء الحياة القوميّة وتجاربها " [٢]

فبالإضافة إلى الدوافع السابقة، هناك دوافع أخرى قادت الدكتور (عبد الحميد بدران) إلى كتابة السيرة الذاتية، وتتمثل في حبه الشديد للكتابة، فهي الهواء الذي يتنفسه، والكيان الذي يعشقه، ومن ثم فإن من دوافع كتابة السيرة الذاتية لديه أيضا تحقيق المتعة الفنية، فقد: " يجد الكتّاب والمبدعون عندما يؤلّفون في فعل الكتابة ضربا من اللذّة الذاتية ولكن هذه اللذّة الفنية تبلغ أقصاها في كتابة السيرة الذّاتية. ذلك أن كاتب السيرة الذّاتية يتلذّذ باستحضار الذكريات السعيدة الّتي عاشها.

إن فعل الكتابة في هذا الجنس الأدبي هو فعل استحضار للذّكريات واستعادة لماض بعيد وهو فعل عسير ولكنّه يبعث ضربا من اللذّة الفنية لا يتوفّر في مجالات إبداعية أخرى، في هذا الجنس الأدبي يعيش المؤلّف لحظتين زمنيتين. إنّها لحظة تزامن فريدة أن يطلّ المؤلّف على حياته الماضية من موقع حاضره الّذي يعيشه " [٣]

وقد صرح بذلك الدكتور (عبد الحميد بدران) في كتابه (ابن الكاتب) قائلا: " لم يدر في خلدي يوما ما أن المواقف التي رصدها قلمي، وأفاض عليها الخيال مسحة من درامية شفيفة يمكن أن تقيم قصصا فنيا يوما ما، فكل ما كنت أصبو إليه أن أجسّد المواقف وأحرّك الشخوص، لعلي أفلح في توظيفها في عمل درامي كبير لأن الدقة في رسم المشاهد في الأعمال الدرامية لا تتأتى

---

[١]- رواية السيرة الذاتية في أدب توفيق الحكيم دراسة نقديّة تحليلية، إعداد سامر صدقي محمد موسى، ص٦١، رسالة دكتوراه جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين ٢٠١٠م.

(٢) – الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبد الدايم، ص٣٢.

(٣)- عندما تتكلم الذات، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. محمد الباردي، ص٦٣، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق . ٢٠٠٥م.

في العمل الكبير دفعة واحدة، ولو حدث ذلك جدلا، فإن الأمر سوف ينتج مشاهد درامية باهتة... كل ما أنا على يقين منه الآن أنني حاولت أن أكتب، وقد أفلحت في الاستجابة لهاجس الكتابة الذي كان يجتاحني، لكنني موقن أن الذكريات المحفورة في كياني، كانت المداد والقلم، وأن الثقافة التي تثقفت بها، كانت تمثل الوعي الذي أدرك فيه أحيانا، أنني في طريقي لعمل مختلف، وأن الدهشة هي النكهة التي يمكن لها، أن تجعل لكل حرف فيه معنى"(١)؛ لذا فإن دافع تحقيق المتعة الفنية وإبراز الموهبة الأدبية، يأتي في مقدمة دوافع كتابة السيرة الذاتية لدى الدكتور (عبد الحميد بدران).

ومن دوافعه الخارجية إلى تدوين سيرته الذاتيّة وتسجيل تجربته، تأثره بالأدباء وقصص أمه، وإلحاح بعض الأصدقاء، وسؤال القراء، وغير ذلك، وهذا ما صرّح به الكاتب في قوله: " إنني مدين بالفضل لكثيرين، مدين للجاحظ والمنفلوطي والرافعي، ومدين لأمي التي أرضعتني الحكمة والحكايا، ومدين لأبي الذي دائما ما كان يتحين الفرصة كي يدفعني إلى الأمام، ومدين لكل الذين شاركوني أيّ حدث في حياتي، ومدين لأبنائي الذين كانوا لُحمة كل عمل وسَداه، مدين لقرائي الأعزاء الذين لولاهم ما كان حرف ليكتب، ولولا تشجيعهم ما كان أمل ليولد، ولولا فرحتهم ما أحسست بطعم النجاح، فهم المن والسلوى، وهم القلم والمداد، وهم مصدر البهجة وعنوان السعادة، وكل ما أصبو إليه أن أستطيع قضاء الدين الذي طوقوا به عنقي يوما ما " (٢)

فهناك روابط تجمع بين كاتب السيرة وبين قرائه؛ لأنه يحدثهم " عن دخائل نفسه وتجارب حياته، حديثاً يلقى منا أذناً واعية، ولأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسراره وخباياه؛ وهذا شيء يبعث فينا الرضى، وقد يأسرنا فيحول أنظارنا عن نقد الضعيف والواهي في سرده، ويحملنا على أن نتجاوز له عن الكذب، ونتقبل أخطاءه بروح الصديق، وإذا أدى الكاتب هذه المهمة فقد رضي أيضاً عن نفسه؛ لأن دوافعه إلى التحدث، هي الدوافع التي تحدو صاحب السر إلى الإفضاء بمكنونات صدره، دون تحرج أو تأثم" (٣)

وبناء على ما تقدم من المواثيق والروابط التي تربط الكاتب بقرائه، اندفع كاتبنا بقلمه الرقيق والدقيق إلى الإفضاء بكوامن نفسه، والكشف لقرائه عن عالمه الخاص من خلال موهبته الأدبية؛ إذ الدوافع وحدها لا تكفي لكتابة السيرة الذاتية، بل: " لا بد من امتلاك موهبة فنية تساعده على ذلك.. فليس بمقدور كل إنسان أن يكتب سيرته الذاتية" (٤)، والدكتور عبد الحميد أهل لذلك فهو أديب شاعر.

---

(١) – ينظر: ابن الكاتب، ص١، ٢.

(٢)– ابن الكاتب، ص٤

(٣)– فن السيرة، دكتور إحسان عباس، ص٩٤، دار صادر بيروت – ط١، ١٩٩٦م.

(٤)– السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، ص٢٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

الصراع ونجوى الذات

لا تخلو نفس إنسان من الألم والصراع، سواء أكان هذا الصراع بين الإنسان وذاته، وهو ما يعرف بالصراع الداخلي، أو بين الإنسان وأقرانه، أو المحيطين به في مجتمعه الذي يعيش فيه، وهو ما يعرف بالصراع الخارجي، ولابد في كتابة السيرة الذاتية: " من أن يتجسد فيها الماضي بخيره وشره، لا على شكل ذكريات متقطعة، ولا على شكل صور خارجية شاهدها الكاتب في الناس والأشياء، بل على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها " [١]، ولذا فإن القيمة الفنية للسيرة الذاتية تكمن " في الصراع، وفي مدى القوة التي تمنحها للقراء، وهي تقدم لهم مثالاً حياً من أنفسهم" [٢]

ويذهب بعض النقاد إلى: " أن حظ الترجمة الذاتية من البقاء، يرجع في الغالب، إلى مدى ما تنقله لنا من إحساس كاتبها بالصراع، الذي يثير في نفوسنا ألواناً من المشاعر تحفزنا على مشاركته تجاربه وخبراته، وعلى تعاطفنا مع مواقفه وأفعاله" [٣]

فكل إنسان له موقف من بيئته ومحيطه الذي يعيش فيه، إما شعورا بالغربة والقلق وعدم الانتماء، ومن ثم يقف منها موقف الحذر والريبة والتمرد، وإما شعورا بالألفة والحب والانتماء، فهو دائم الحنين والوصال والتذكر، وهذه المشاعر المتضاربة والمواقف المتباينة، هي نتيجة طبيعية ولدتها صراعات الحياة، والدكتور (عبد الحميد بدران) أحد الأدباء الذين عاشوا الماضي ولامسوا رحمته وقسوته، لكنه دائم الحنين والاسترجاع له، وتصوير ما تعرّض له في فترات حياته المتعاقبة.

ومن خلال ما سبق تتضح أهمية الصراع في كتابة السيرة الذاتية؛ إذ نجاح السيرة مرهون بوعي الكاتب وقدرته على تصوير الصراع في مراحل حياته المختلفة؛ لأن الوجود الإنساني لا يخلو من: "الخير والشر، النور والظلمة، الثواب والعقاب، الجنة والنار، المادة والروح، الحركة والسكون، لا بد أن يكون ثمة تعادل بين هذه المتناقضات، ولا بد من تواجدها؛ لتستقيم الحياة؛ وليتحقق التوازن " [٤] والقبول والإقناع، والإمتاع لدى القارئ، وبالنظر في سيرة كاتبنا نستطيع أن نقف على الكثير من صور الصراع، من ذلك:

---

(١)- فن السيرة فن السيرة، دكتور إحسان عباس، ص٩٩، دار صادر- بيروت – ط١، ١٩٩٦م.

(٢)- فن السيرة، د إحسان عباس، ص٩٠.

(٣)- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبد الدايم، ص١٥٠.

(٤)- اتجاهات القصة المصرية القصيرة، د. سيد حامد النساج، ص٣١٣، مكتبة غريب، ١٩٨٨م.

أولا: الصراع المادي:

فعلى الرغم من ضعف إمكانات كاتبنا وصراعه مع قساوة البيئة التي يعيش فيها، لكن ذلك لم يثنه عن كفاحه وتمرده على معوقات الحياة، والرغبة في التواصل والتقدم، ترى ذلك في قوله: " أحمد الله أنني لم أكن أحد أبناء الطبقة المتوسطة، فربما لو كنت أحد أبنائها لما كنت حريصا على الجد في تحصيل دروسي، ولما كانت دعوات أمي تحاصرني مع كل أذان تسمعه، وربما ما كنت عُدت بالذاكرة يوما ما إلى حيث طفولتي المعذبة، إلى أحلى عذابات الدنيا، حيث تتعامد أشعة الشمس في بلدتي على أبناء الفقراء، لتمنحهم طاقة لا يقدر على تحملها أبناء الأغنياء مهما كانت قوة مظلاتهم وصلابة أجسادهم " (١)

فالصراع –كما ترى– ناتج عن ضعف الإمكانات، الذي يعاني منه أغلب أبناء الريف، لكنه لم يكن معوقا للكاتب، بل كان سببا في صموده، واستمراره، وتفوقه ونجاحه، وكاتب السيرة الذاتية –في هذا المقام– أحد رجلين، إما ثائر متمرد، وإما خامد راضخ؛ إذ ينتج عن قوة الإحساس بالصراع في نفوس كتاب الترجمة الذاتية: " أن غلبت على ترجماتهم الذاتية روح الثورة والتمرد... كما نتج عن إحساسهم بالصراع، إحساس بالقلق والحيرة والغربة في البيئة المحيطة، وعدم الانتماء إليها، ووقف الكثيرون منهم موقف الحذر والريبة وسوء الظن والسخط من هذه البيئة.. ومنهم من وقف من بيئته موقف الصلابة والإصرار على تغيير ما بها من مسلمات " (٢)، وهو ما رأيناه من كاتبنا، حيث كان الصراع المادي مقدمة لتفوقه ونجاحه.

ويظهر ذلك من خلال تساؤله حول تذكره الدائم لزملاء الدراسة " أم أنها محاولة للتباهي بما أنعم الله به عليّ، والتفاخر بأن الطالب الذي لم يكن يملك قوت يومه قد أصبح بفضل الله شيئا مذكورا؟ " (٣)

هكذا تظل شخصية كاتبنا تتصارع مع دوافعها الشخصية وتتساءل حول تداعي الذكريات، واستدعائها المتكرر، والصراع كما ترى يكشف عن اجتهاد الكاتب وصموده، وتغلبه على الضغوط المعيشية، والواقع المرير.

وفي هذا السياق أيضا يقول " لا أظن أنها تذكر الطفل ذا الكساء القطني المخطط الذي كان همه أن يحافظ على نظافة ثوبه وهو ذاهب إلى الكتاب، حتى لا تضطر والدته إلى إجباره على ارتداء الثوب الآخر، الذي تآكلت منه مناطق كثيرة، لأن والده لم يكن وقتها يملك قوت يومه"(٤)

---

(١)– ابن الريف، ص ٥.

(٢)– الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبد الدايم، ص ١٥٠–١٥١.

(٣)– ابن الكاتب، ص ٩٦.

(٤)– ابن الكاتب، ص١١٢.

هذه اللفظة (قوت يومه) تكشف عن مدى المعاناة التي كان يعيشها كاتبنا، فهو يعيش بين شقي الرحى؛ يرى والده مكدودا متعبا من أجله، ولا يستطيع أن يفعل له شيئا؛ نظرا لانشغاله بتحصيل العلم ومضيه في طريق لا يعلم كيف ستكون نتيجته، ومن ثم كان نهاره حافلا بالتوتر والقلق، وليله حافلا بالأحلام والكوابيس.

ثانيا: الصراع النفسي واللاوعي:

ويظهر هذا الصراع أيضا في سيرة كاتبنا بظهور فصل الشتاء، يقول: " لقد ظننتني لذلك أكره الشتاء، الذي يأتي فتتخشّب أجسادنا في الصباح ونصير كألواح ثلجية تمشي على الأرض، وتتدافع أنفاسنا الصغيرة مكونة سحابة من بخار الماء، الذي يتطاير كما يتطاير دخان المدخنين، وظننتني أكرهه لتراكم كميات الماء التي كانت تمكث في الشوارع حتى تفوح رائحتها الآسنة، فنضطر إلى العبور خلال ممرات ضيقة صنعتها أقدام المارة بجوار الجدران الطينية التي حماها أصحابها بكتل من طين الشوارع، لكنني كنت أكره الشتاء؛ لأنه كان يتسبب في حرماننا من بعض المدرسين الذين يفدون إلينا من المدينة.. كما كان يتسبب في حرماننا من بعض الطلاب الذين يأبون المغامرة بملابسهم النظيفة، فيتغيبون عن المدرسة يوما أو أكثر كما كانت تصنع (هنا)، كما كان الشتاء يحرمنا من الجلسات الشمسية التي نستمتع بها في حوش المدرسة حيث يسرد لنا مدرس التاريخ كل ما كنا في شوق إليه من أحداث التاريخ في صورة حكايا لا نمل طريقتها " [1]

فأنت ترى الصراع في هذا المشهد يصور مدى المعاناة النفسية، والإحساس المؤلم، الذي عاشه كاتبنا؛ نظرا للفقر الخدمي الذي يعانيه أبناء الريف عموما، لا سيما في فصل الشتاء، والصراع هنا يكشف عن قوة الإرادة التي يتحلى بها الكاتب، ومدى الحرص على التعلم ومجالسة العلماء.

ويأتي الصراع الذي يكاد يقتل نفس الكاتب ويودي بحياته؛ نتيجة سطوة الخرافات والأساطير، على أغلب الناس هناك، ومن مظاهر ذلك: " وما أقسى الفترات التي كان يطلب فيها الوالد مني أن أذهب إلى البقال في ليل الشتاء المظلم، لأقضي حاجة من حاجاتنا، فأجدني أصطحب عصاه وأرتدي حذاءه الغليظ، وأتوكأ على العصا وأنا أشعر أن أشباحا تسير من خلفي، وعفاريتا تحرك القش الذي فوق الأسطح، ويظل قلبي يرتعد خوفا، وأنا أدعو الله أن يكون البقال القريب يقظا، حتى لا أضطر إلى الذهاب إلى البقال الآخر الذي يقطن أقاصي البلدة، مما

(١)- ابن الريف، ص٩- ١٠.

سيضطرني إلى المرور على المكان الذي قالوا بأن (زوج بثينة) قد قتل فيه، مما سيجعل شعري يقف، وقلبي يكاد يتوقف حينها عن العمل، كما حدث في الليلة التي خرجت فيها أبحث عن زجاجة للمبة الجاز التي كسرتها أختي فوجدتني أصرخ فيها بحدة : تروحي تشتري الزجاجة " (١)

فالصراع – كما ترى– يكشف عن السلبيات المتوارثة في الريف، حيث تنشئة الأولاد على الوهم، والخوف من المجهول، وغيره مما يترك أثرا سلبيا في حياة الأطفال، ويظل معهم حتى يصيروا رجالا؛ إذ لا يزال الكاتب يذكرها حتى الآن.

ومن هذه الصور صراعه مع عالم الأحلام والكوابيس، وهي التجربة التي وقعت لأحد أولاده أثناء إقامتهم للعمل في بيت بعيد: " لكنني لاحظت في هذا البيت شيئا غريبا، فعند منتصف الليل كان يظهر ظل رجل طويل في ركن من أركان المنزل، أخبرت عائلتي بذلك الأمر فلم يصدقوني، وظنوا أنها تهيؤات بسبب الظلام الذي كان يحل ليلا، نظرا لأن أضواء المنزل لم تكن كثيرة، وبعد مرور شهر من هذه الحادثة الغريبة بدأنا نسمع عند خلودنا إلى النوم صوت رجل يمشي في طرقات المنزل، حتى لم يكن أحد منا يجرؤ على الذهاب إلى دورة المياه.

بعد عودتي من المدرسة وجدت أمي قد أحضرت الغداء، وبعد انتهائنا من تناول الطعام ذهبت إلى الحمام لغسل يدي، وفجأة قطع التيار الكهربي وأغلق باب الحمام بقوة، وعندما تذكرت أن دورة المياه في الطابق الأرضي ولن يسمعني أحد . أصبت من داخلي بالذعر، وصحت بأعلى صوتي طلبا للنجدة، حتى أغمي علي، بعدها بدأت أسمع أصواتا غريبة: (اخرجوا من هذا البيت)، (لماذا تصرون على البقاء؟)، ثم رأيت كتابة على الحائط (اذهب إلى الجحيم ... سنبدأ بك)، ثم عاد الصوت الغليظ: (اخرجوا من هذا البيت.. اخرجوا من هذا البيت). أغمي علي من فوري ثم صحوت وأهلي جميعا حول سريري، يحاولون إيقاظي وهم خائفون علي، استجمعت أنفاسي وقلت لهم: يجب أن نخرج من هذا البيت حالا.." (٢)

ومن هنا بدأ الاضطراب والقلق يسيطران على الكاتب وأسرته؛ حتى أصيب أحد أولاده بمرض نفسي؛ نتيجة هذه المشاهد المرعبة، والخوف من المجهول، وكثرة الترقب، والبحث عن منزل جديد، وما يتبع ذلك من التنقل والترحال وعدم الاستقرار.

ومن صور الصراع النفسي في حياته؛ نتيجة الخوف والإحساس بالمسئولية، تلك اللحظة الحاسمة وهو ينتظر موعد نتيجة الفرقة الرابعة بالكلية، وما يصاحب ذلك من قلق وتوتر، وتقلصات مستمرة، وأحلام مزعجة، يقول: " تجمدت أعضائي فجأة، وكدت لا أقوى على الوقوف، وامتلأت عيناي بالدموع، فما كدت

(١)– ابن الريف، ص١٢.

(٢)– ابن الكاتب، ص٤١، ٤٢.

أبصر طريقي إلى منزلي، وسط حفر التليفونات الكثيرة التي تملأ الشوارع، وتناسيت مرة واحدة آلام المذاكرة وحالة الرعب والقلق التي كانت تنتابني، والأحلام المزعجة التي كانت تطاردني، وبت أفكر في أمر واحد، هو أن زميلي سوف يملأ بالخبر ساحات القرية، الآن يمكنني ألا أخاف من هذه الاختبارات المزعجة، التي وتّرتني طيلة أربع سنوات، صاحبني خلالها التهاب القولون اللعين، والآن يمكن لي أن أفكر كيف تكون خطوتي الأولى على السلم الجامعي " (١)

فالصراع هنا صراع تحديد المسار، وما يترتب عليه في المستقبل، والخوف من القادم والتفكير فيه بصفة مستمرة، بطريقة تكاد تنهك العقل والبدن؛ إذ هو صراع لازمه سنوات وليس صراع يوم وليلة.

ومن هذه المشاهد في نصه (ابن الكاتب) التي لا زالت تلازمه، ويشعر أمامها بشيء من الخوف، والتوتر، والانتظار، قوله: " ما زال شبح الاختبارات اللعينة يطاردني هو الآخر رغم انتهاء الاختبارات منذ ما يربو على عشرين عاما، أجدني قد تأخرت عن موعد الاختبار، وأظل ألهث طوال الليل، خارجا من مأزق إلى مأزق، ثم أصل في النهاية إلى لجنة الاختبار مجهدا، أتسلم ورقة الإجابة خائفا، أراقب عقارب الساعة، وكل أملي أن ألملم ما يكفي من إجابة لكي أحصل على التقدير الذي أرغب فيه، في وقت أكاد فيه أسمع رعشة أرجلي وهي تهز قوائم الدرج الذي أجلس عليه.

وجوه كثيرة تقابلني في هذه الرحلة القاسية، سائق القطار الذي نزلنا نتوسل إليه أن يسرع حتى لا يضيع علينا الاختبار، وهو يواجهنا بنواجذه البارزة وابتسامته الفاقعة قائلا: (ليس الأمر بيدي.. أمامي قطار لا أستطيع تجاوزه)، وعدد من سائقي التاكسي الذين لا يقدرون الظروف، بل يستغلون حاجتي للحاق بلجنة الاختبارات، فيطلبون أجرة مضاعفة، أدعو الله في كل مرة أن يكون ما معي من النقود كافيا لسد أطماعهم، ففي كل مرة أسحب عشرة جنيهات مما ادخرته في أيام الدراسة، ثم أعود من الاختبار في حالة يرثى لها من الجوع والتعب" (٢)

فالصراع –كما تلاحظ– يعكس حالة اللاوعي التي تتأجج قلقا، واضطرابا، وتوترا لدى الكاتب، كما تشعر فيها بلمسة إبداعه وهو يجعل القارئ في نفس حالة توتره وترقبه لما ستؤول إليه الأحداث، وكأنه يشاهدها أمام عينه، وذلك من خلال براعته الفنية في الوصف والتصوير.

(١)– ابن الريف، ص٥٠.

(٢)– ابن الكاتب، ص ٣٩، ٤٠.

ثالثا: صراع العادات والتقاليد:

ويأخذ الصراع هنا مظهرا مغايرا، حيث صراع العادات والتقاليد في أمور الزواج والحب، ويكشف عن ذلك حواره مع أمه الذي يشير إلى طبيعة الناس هناك في أمر الزواج، حيث يحرصون على القريبة والصغيرة، دون اعتبار لأهمية التوافق النفسي والفكري، الأمر الذي أغضب كاتبنا وجعله يختلف –في أدب– مع أمه: " فقد أحسست فجأة أن المهمة شاقة، فارتديت جلبابي وخرجت حتى لا أغضب أمي، فالبنات في الريف يتزوجن فيما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، ولا دخل لمعظم الفتيات في الريف بالتعليم، فرؤوسهن محشوة بالزينة والملبس والتنظيف والطبخ، وعليّ أن أقنع والدي بفكرة الخطبة، لعله يستطيع إقناع أمي " (١)

ومن ذلك أيضا تألمه لما أصاب زميله (يحيى)، الذي كاد يفقد روحه منتحرا؛ نظرا لعدم موافقة والده على زواجه من زميلته (دعاء): " لا أستطيع نسيان صورته وهو ملقى على سريره، ووالده يستعطفني من أجل إقناعه بابنة عمته الجميلة اليتيمة، وكيف أقنعه بأن ابنة عمته تفوق زميلته جمالا، وقلبه لا ينبض أمام هذا الجمال الظاهري؟، وكيف أقنعه وأنا أمرّ بنفس العواطف التي كان يمر بها؟" (٢)

فالصراع – كما تلاحظ – في النصوص السابقة، يكشف عن طبيعة التركيبة الاجتماعية في الريف، وطبيعة الناس هناك؛ إذ يحرصون – في الغالب– على تزويج أولادهم من الأقارب، دون أدنى اعتبار لإنسانية الفرد وحقه في اختيار من يرضاه، ودون النظر للتكافؤ الفكري والنفسي، وكأنه إشارة من الكاتب لرفض هذه العادات التي لا تهتم لشيء سوى المظاهر ومراعاة الخواطر.

وينتج الصراع في حياة كاتبنا؛ نتيجة تسلط بعض كبار السن في المساجد، وهي صورة متكررة في قرانا، ويبدو ذلك أثناء حديثه عن: " صورة ذلك الرجل الفظ الذي كان يصلي في المسجد القريب من بيتنا، ويصر على تأخيري عن الصف الأول، حتى لو كان غير مكتمل، وكأنه يريد أن يثبط عزيمتي، حتى أزهد الصلاة في المسجد، كنت أشعر بضيق النفس كلما رأيت هذا الرجل القصير الذي يحمل عصاه الغليظة، وكأنه أحد فتوات القرن الغابر، وكنت أقف في مكاني من الصف وأنا على يقين من أنه سوف يخرجني منه، رغم أنني تجاوزت نصف القرآن حفظا " (٣)،

---

(١)– ابن الريف، ص٦٧، ٦٨.

(٢)– ابن الريف، ص٣٥.

(٣)– ابن الريف، ص١٥، ١٦.

وهذه مشاهد تكثر في الريف –في الغالب– وتتكرر؛ بصورة استفزت الكاتب وآلمته، وتركت أثرا سلبيا في ذاكرته، وإشارته إليها إشارة رفض واستهجان؛ مخافة أن يغادر أطفالنا بيوت الله إلى بيوت أخرى.

وفي هذا السياق، يأتي الصراع في سيرة كاتبنا أيضا؛ نتيجة مؤثرات خارجية، كسلطة الأب المسيطر الذي يعطي أوامره دون الالتفات إلى رغبات ولده، أو إلى احتياجاته النفسية " كان تحصيل الدروس همّ والدي الأكبر، بينما كنت أحس فيّ بطاقة مكنونة، لم تفلح كرة القدم التي يمارسها الزملاء في الأجران والشوارع في استقطابي، كما كانت تستقطب أخي الأصغر، فكنت أبحث عن تنفيس الطاقة الكامنة عندي في الثورة على هيئة بيتنا القديم، ومجموعة الصوامع الطينية التي كانت تستغلها أمي في حفظ الحبوب، لكنها كانت في نظري تشوه فناء البيت، وكان جزائي أن أعاقب بالضرب كلما شرعت في هدم أحد هذه الصوامع العتيقة " [1]

(١)– ابن الريف، ص١٧.

رابعا: صراع الفقد والغربة:

ويمثله تألمه لفقد أمه التي لا يزال يذكرها، يقول: " إن حدثتك يا بني عن الذكريات فسأحدثك عن قبر أمي التي واراها الثرى دون أن أودعها وداعا يليق بما صنعته من أجلي، لقد قالت لي: سافر أنت وسأنتظرك لتجدني بخير، فاختلط دمعي بدموعها وهي تودعني بغرفتها، دون أن أنتبه أن هذه هي دموع الوداع، وأن تلك النظرة التي شيعتني بها كانت هي الأخيرة في رصيد نظراتي إليها " (١)، فهو يتألم لفقدها ويزيده ألما أنه لم يودعها، ولم يشهد جنازتها، لذا فهو لم يصدق أنها فارقت الحياة.

وفي هذا السياق تألمه وصراعه النفسي لفقد زميلة الدراسة (هدي)؛ إذ لا يزال يذكرها: " كانت الأنباء قد تطايرت بمصرع إحدى يتيمات القرية التي قضت نحبها تحت عجلات السيارات، في الطريق بين طنطا وكفر الزيات، حيث كانت تعمل في أحد محال تنظيف الدجاج هناك، سعيا وراء لقمة العيش، فمن ورائها ثلاثة إخوة، وأم أنهك المرض قواها، ولا عائل لهم إلا ما تجود به يد المحسنين ... (أخلصوا في الدعاء، لعل الله يقيض من يخلص لكم في الدعاء، من كان له أو عليه دين للمتوفى فليذهب إلى أهله حتى ترد الحقوق إلى أهلها..) قالها ثم بدأ في توضيح كيفية صلاة الجنازة، وأنا أقول في نفسي: من كان له دين عليها فليسامحها، فمن ذا الذي يستطيع من إخوتها الصغار أن يسد عنها؟ وأمهم قعيدة الفراش، تعيش على اللقمة واللقمتين.

كانت (هدى) من أنقى فتيات القرية سيرة وسريرة، قضيت معها في المدرسة خمس سنوات، كانت فيها مثالا للطيبة والخجل، ورغم ذلك لم تكن تخجل من ملابسها القديمة، في الوقت الذي كنا فيه نتباهى بزينا الجديد في أول يوم دراسي، ولم تكن مثلنا تتسلم الكتب في اليوم الأول من الدراسة " (٢)

ويبدو صراع الغربة في قوله: " فكم كانت تقسو الرحلة كلما ذكرت الوطن، بأرضه وسمائه، ومائه وهوائه، وكم اغرورقت العين بالدموع في رحلة الذهاب إلي حيث الصحراء والصمت، والوحدة والغربة، ومعادن الناس التي أذن الله لها أن تتكشف في هذه الرحلة الطويلة، وحديث زملائنا الذين كانوا يترقبون تجديد عقودهم، كما يترقب الطالب المجد درجاته في الثانوية العامة، بينما كنت مهموما بالتفاوض من أجل قطع إعارتي، حتى أنقذ نفسي ومشروعي الذي أحلم به "(٣)

---

(١)- ابن الكاتب، ص٧٦.

(٢)- ابن الريف، ص١٠٩، ١١٠.

(٣)- ابن الريف، ص١٣١.

خامسا: صراع التجربة والإبداع:

ويبدو هذا الصراع بوضوح في نصه (ابن الكاتب) كما يوحي بذلك عنوانه؛ إذ يقدم فيه الكاتب مجموعة من الأحداث، التي تتعلق بحياته وحياة أسرته وأطفاله، يعيش معهم هذه الذكريات وهذه الأحداث، التي يقدم من خلالها النصح والتوجيه في ميادين الحياة والأدب بطريقة غير مباشرة، كما يصور مراحل المخاض الكتابي وما يصاحبها من قلق، وتوتر، وانفعال، ترى ذلك في قوله: " فمن يستطيع يا بني أن يسوّي بينكما وبين زميلكما (هويل)..، رغم أن هويل يكبركما بثلاث سنوات، ولا يكاد يقرأ جملة صحيحة، وكيف يسوي بينكما وقد تأدبتما بأدب القرآن قبل أن يصير لكما نهم بقراءة القصص وحفظ الأناشيد والأشعار؟ "(١)

فهو – كما ترى– يشير إلى المعين الأول لعملية الكتابة والإبداع، والذي يتمثل في لغة القرآن، التي تقوّم لسان المبدع وتهذبه، وتمده بالألفاظ والمفردات المتعددة، ثم قراءة أشعار العرب، والقصص التي تنمي خيال المبدع وتزكيه.

وتراه يقول: " إنني أنظر إلى بيانك الخصب يا بني فأرى أنه قد توفر له من الجودة والنصاعة ما لم يتوفر لي، فأنت تنثر أدبا ما تأتى لوالدك في هذه السن المبكرة، فليس يفطن من يقرأ رسالتك إلي أنها رسالة ابن لأبيه، وليست قطعة فريدة من الأدب العالمي؟، ومن ذا الذي لا يعجبه قولك: لقد بلغت الثالثة عشرة يا أبي، وقرأت ما وقع تحت يدي من كتب عربية ومترجمة، وأعجبت بكثير من الكتابات التي حاكيت بعضها دون أن أشعر أنها يمكن أن تمثلني تمثيلا صادقا، وما زالت كلماتك تطن في أذني أنني لو جئت الآن بعمل يشبه هذه الأعمال الرائعة، لكان رائعا إن حاكمناه إلى عصرها، ولكان هزيلا إن حاكمناه إلى عصرنا نحن، لأن العمل لا بد أن يمثل العصر الذي ولد فيه، والمخاض الذي شهد ولادته، وما زلت أنتظر حافز الكتابة الذي يجعل لي شخصية لا تتماهى في غيرها من الشخصيات التي تولد لدي غرام بإبداعها، وما زلت لا أستطيع التنقل بين الأفكار كما تتنقل أنت في رشاقة ولطف، حتى لو تباعدت الأفكار وتعددت الصور " (٢)

ولا زال يصور مظاهر القلق الفني وتجاربه المتفاعلة داخل نفسه؛ إذ يرى أن: " الأدب مرض من لون فريد، وأن التعبير عنه أول مرحلة من مراحل التداوي؛ ومن ثم لن أستنكف وأنا أعبر عن المخاض الكتابي فأصف التوتر والقلق، وأنا أشاهد وقع حروفي على المتلقي الذي ربما عاش

(١)– ابن الكاتب، ص٢٢.

(٢)– ابن الكاتب، ص٣٢.

لحظات مثل التي يطالعها بين ثنايا كلماتي، ثم أصف الفرحة بالمولود الجديد الذي صنع على عيني، ومدى هيامي بمراجعته حينا من الدهر، حتى يمنّ الله علي بعمل جديد، أفيء فيه إلى دفتري لأقتطع من الزمن وقتا أعيش فيه ما كان كما كنت أرجو أن أراه " [١]، فالكتابة ألم ومخاض وانفعال، وشبيه بذلك قول أبي الطيب (وَيَسْهَر الخلقُ جَرَّاها وَيَخْتَصِمُ)، ومن ثم فإن أولى مراحل الشفاء هي التعبير عن الإبداع، والفرح بإنجازه، والكلمات -كما رأيت- تصور حالات القلق والانفعال في سبيل النضج الفني، والقدرة على الوصف، والكشف عن محفزات الكتابة والإبداع.

ويمكن القول: إن الدكتور (عبد الحميد بدران) أحد أبناء الريف وأدبائه الذين عانوا سطوة العادات والخرافات المتجذرة التي سيطرت على الحياة هناك؛ إذ إنه يعيش وسط أناس يقدسون العادات والتقاليد، ويروجون للخوف من المجهول، ومن ثم حفلت سيرته بالصراع بين التقاليد، وبين ما تعلمه وما تلقاه من علوم وأفكار، بل زاد من صراعه ما يحمله بين جنبيه من نفس شفافة تشعر بالمسئولية تجاه نفسها وتجاه الآخرين، وهو ما جعل الصراع حاضرا في نصيه (ابن الريف، وابن الكاتب) فابتعد إلى حد بعيد عن الكتابة العشوائية، والذكريات المتقطعة.

(١)- ابن الكاتب، ص٣٤.

الصدق والصراحة

يختلف كاتب السيرة الذاتية عن كاتب السيرة الغيرية، فالأول يغوص داخل نفسه، ويقف منها موقف الحكم أو الناقد؛ لذا اشترط بعض النقاد في كاتب السيرة الذاتية: " أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعف عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة، لأن الخيال قد يخرجها مخرجا جديدا ويجعلها قصة منمقة ممتعة " (١)

وهذا – أعني التزام الكاتب الصدق والصراحة – هو الفارق بينه وبين القصة والرواية؛ إذ لابد:" له من مذكرات ورسائل وشواهد وشهادات من الأحياء– أحيانا– يعتمد عليها في كل خطوة"(٢)

لكن السؤال إلى أي مدى يمكن أن يلتزم كاتب السيرة الذاتية بالصدق والصراحة؟ و" الجواب على هذا التساؤل سهل لا يحتاج كثيراً من التدقيق، فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها؛ ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية (محاولة) لا أمراً متحققاً " (٣)، وحجتهم في ذلك صعوبة احتفاظ الذاكرة بجميع الأحداث، فهناك النسيان الطبيعي، والنسيان المتعمد للأشياء التي يستحي الإنسان من ذكرها.

فـ" الصدق المحض في الترجمة الذاتية – رغم أنها أصدق الفنون الأدبية تصويراً للإنسان– هو مجرد محاولة، وهو صدق نسبي... لأن هناك عوائق تعترض سبيل المترجم لنفسه، وتحول بينه وبين نقل الحقيقة الخالصة، ومن هذه العوائق أن الحياة نسيج صنعت خيوطه من حقيقة وخيال، وحياتنا وأفكارنا تصنع بعض أجزائها من وحي الخيال، والحقيقة المجردة، شأنها في هذا السبيل شأن الخيال البحت، كلاهما يختفي من الترجمة الذاتية " (٤)

ولصاحب السيرة التي نحن بصدد دراستها، رأي في قضية (الصدق)، فهو يرى أن الصدق المجرد من الحبكة والتشويق يفقد النص الحيوية والحركة والجمال، يقول: " ليس لأن الصدق التام في نظري أمر مستحيل الحدوث كما يظن، ولكن لأن الصدق التام في السرد لا ينتج أدبا جيدا يعلي من قيمة التشويق، ويترك مساحة للتوتر أو التنامي" (٥)

---

(١)– فن السيرة، إحسان عباس، ص٧٤.

(٢)– فن السيرة، إحسان عباس، ص٧٦.

(٣)– فن السيرة، إحسان عباس، ص١١٣.

(٤) – الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبد الدايم، ص٦، ٧.

(٥) – سحابة صيف، د. عبد الحميد بدران، ص٤٦، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م.

فهو يرى أن المزج بين الحقيقة والخيال يمنح الكاتب مساحة يتحرك فيها كيف شاء، كما أنه من شأنه أن ينتج أدبا يمتع القارئ، ويثري خياله: " إن الكاتب في السيرة الروائية مطالب بتحقيق الذاتية في تصوير الأحداث والحكم على النفس، دون أن يتورط في تضخيم الذات أو تشويه الآخر، كما أنه مطالب بتحقيق صدق نسبي في عرض الأحداث، مع الاعتماد على عنصر التشويق الذي يضمن تماسك الأحداث وتواصلها وتتابعها، لارتباطها بالتاريخ الحقيقي للسيرة وخيال الكاتب" [١]، فهو يرى أن الخيال المعتدل لا يتعارض مع الصدق في السيرة الذاتية.

وبناء على ما تقدم، رأيناه في سيرته (ابن الريف، وابن الكاتب)، يأبى تقديم الحقائق جافة مجردة؛ نظرا لأهمية التشويق في العمل الأدبي، وأنه الحبل السري، الذي يمسك بخيوط أي عمل أدبي، ويضمن سريان الفكرة في نفس المتلقي كما يسرى الأكسجين النشط في الأوردة والشرايين، هذه الرؤية هي التي دفعت الدكتور (عبد الجميد بدران) إلى التخفي وراء نصوص توظّف عناصر الرواية – وهي ما تعرف بالسيرة الذاتيّة الروائيّة، أو رواية السيرة الذاتيّة – فاتّجه في سرد سيرته وأحداثه إلى منطق الرواية المنظم، الذي يعتمد على تماسك الأحداث وتواصلها وتخيلها، لا منطق السيرة المحكوم بالتسلسل التاريخي والحقائق الجافة، ومن ثم جاءت نصوصه مزيجا من الحقيقة والخيال.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المشاهد التي جسّدت الصدق والصراحة في سيرة الكاتب كثيرة، من تلك المشاهد توصيفه في طفولته لحالة الأسرة المادية: " كان عليّ في هذه المرحلة أن أحافظ على حقيبتي الجلدية التي اشتراها لي أبي أخيرا، وتوعّد بذهابي إلى المدرسة بدون حقيبة إذا ما أصابها مكروه لا قدر الله، كانت حقيبتي عنوان إنسانيتي وآدميتي في هذا الفصل المليء بأمثالي من غير ميسوري الحال وكان الحفاظ عليها عقيدة مثل المحافظة على الصلوات تماما بتمام، فأنّى لفقير مثلي أن يحصل على حقيبة أخرى، مثلما كان بعض الزملاء يصنعون في كل عام، وأنا ما حصلت عليها إلا في عامي الرابع، ثم إنها كانت طوق النجاة للفرار من الأكياس القماشية التي كانت تزركشها بقع السندوتشات، مهما كانت ملفوفة في الأوراق، لأن الحقيبة القماشية إن نجت من بقع السندوتشات لم تنج من آثار الأقلام وفضلات الطين الذي كان يكسو شوارع القرية في الشتاء"[٢] فالكاتب لم يخجل من التصريح بمثل هذه المواقف التي تكشف عن طبيعة حال الأسرة، ومحدودية دخلها.

---

[١]– سحابة صيف، د. عبد الحميد بدران، ص٤٨، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م.

[٢]– ابن الريف، ص٩، ١٠.

ويأتي في هذا السياق استرجاعه لأحاديث أحد أعمامه، و: " كيف كان يقضي ليله وهو يذاكر في ضوء مصباح الشارع، كي لا يضيء مصباح البيت وهو ينجز واجباته، فيضطر البيت بعد يومين أو ثلاثة لقضاء باقي الشهر في ظلام دامس " [١]

كذلك تستطيع أن تدرك شفافية الكاتب، أثناء تصويره لبيت أسرته في السابق، وهو ماض يتبرأ منه كثيرون، يقول : " إن بيتنا يا بني لم يكن يملك من المقومات التي ذكرتها في وصف شقتنا بالسعودية إلا الهيكل الذي يمكن به أن نسميه بيتا، فمكان الثلاجة كان (زير) أمي الذي يمدنا بما نحتاج إليه من ماء بارد، و(قلة) صغيرة من الفخار، رست قاعدتها في جوف طبق صغير، ومن فوقها عود من النعناع الأخضر الذي كانت تزرعه جدتك فيما تزرع من خضروات لتبيعها وتتكسب منها وأنا أجوب معها ضواحي البلدة، ومكان الغسالة كان طشت الغسيل الذي دائما ما كنت أراه ثاويا في مدخل البيت، عن يسار الداخل إلى غرفتنا الأثيرة، التي بنيناها فيما جددنا من أبنية البيت، عندما منّ الله على جدك بوظيفة (محفظ للقرآن الكريم) في المعهد الديني، ومكان (البوتجاز) كان (الكانون) ثم (باجور) الجاز المصنوع من النحاس، ومكان السفرة طبلية كانت أمي تخبز عليها فطائرها كل جمعة، ثم تمنعنا من الكتابة عليها حتى لا نخدشها، فتضطر إلى استعارة طبلية أخرى من الجيران، ومكان الغسالة الأوتوماتيكية كان حبل الغسيل الذي يمتد فوق سطح البيت بين صومعة الجيران من اليسار إلى غرفة الجيران العلوية (المقعد) أقصى اليمين، ومكان حمامك الجديد ذي القاعدتين حمامنا الذي يشبه خلوة المساجد القديمة؛ إذ لم يكن به ولو صنبور واحد؛ لأن ماء البلدية لم يدخل البيت إلا مع دخولنا المرحلة الإعدادية " [٢]

فأنت – كما ترى– تلمح مكاشفة الكاتب، من خلال (الذي كانت تزرعه جدتك فيما تزرع من خضروات لتبيعها وتتكسب منها وأنا أجوب معها ضواحي البلدة)، وهي صورة تحسب لها، ومن خلال مقارنته بين حال البيت في الماضي، وحاله في الحاضر، فصورة البيت الذي عاش فيه طفلا وترعرع فيه شابا، صورة بدائية يخجل كثيرون من التصريح بها، بل يتعمدون نسيانها وعدم الوقوف عليها؛ نظرا لأنها تذكرهم بماض عامر بالصراع والألم والعوز، أو تشعرهم بالحياء والخجل.

ويزيد هذه الصورة وضوحا، فيقول: " وكانت الدواجن تجوب البيت، فلا ينجو من مخلفاتها إلا غرفة الجلوس التي ليس بها إلا حصيرة ووسادة كنت أحاول أن أتكئ عليها في الفاصل بين ساعات المذاكرة، فيأتيني صوت البط المزعج، معلنا ثورته اليومية المشروعة في البحث عن طعام.

---

[١]– ابن الريف، ص٣١.

[٢]– ابن الكاتب، ص ٢٨.

لقد عدّلنا من هيئة البيت كثيرا يا بني، فكانت أقفاص الحمام معلقة فوق باب غرفتي، ولم أكن أربيه ترفا كما أربيه الآن، وأنفق المئات في اقتناء سلالاته وأنواعه، فقد كان عماد البيت إذا همت أمي بالذهاب إلى السوق، وكانت الجنيهات الأربعة كفيلة بأن تفي بحاجتها من السوق وقتها، وكان الحمام أحد أهم الأشياء التي حببتني في هذا البيت، وعلى إثر وجوده عرفت العصافير طريق بيتنا، فعششت وزقزقت، وباضت وأفرخت " [١]

وتبدو صراحة الكاتب في تسجيله لسيرة حياته وانتقائه لمواقفها، يقول: " ومرت كل اللحظات أمامي كشريط الفيديو، أعيد ما أرغب في الوقوف أمامه، وأتخطى اللحظات التي لا أرغب في استذكارها، وأبرزها (الأستاذ سيد) مدرس اللغة العربية الغبي الذي عيرني أمام الطلاب بأني لا أمتلك سوى بنطلون واحد، أحضر به إلى المدرسة يوميا، وتذكرت حصص الألعاب التي لم أكن أشارك فيها لأني لا أمتلك شورتا وفانلة رياضية، مثلما كان يمتلك زملائي، وجرس الفسحة الذي كان يعلن بداية مرحلة التنزه الجيدة، لمن يمتلك مصروفا جيدا) " [٢]

فعلى الرغم من تصريح الكاتب باستيائه من بعض المواقف، والرغبة العارمة في عدم تذكرها؛ إلا أنه لم يجد بدا من الإفصاح عنها، واستعادته لموقف المدرس السلبي، وسخريته من حالة طالبه الذي يقضي عامه الدراسي– وربما أكثر– في بنطال واحد.

ومن المراحل التي توخى الكاتب الصدق في نقلها لقرائه، مرحلة التحاقه بالجامعة، حيث يقول: " لم يكن دخول الجامعة أمرا هينا من الناحية المادية بالنسبة لي، فمن ورائي إخوة يطلبون مصروفات تعليمية، لم يكن في مقدور والدي وفاؤها بسهولة، ولكنه أصر على الوفاء بها، وحارب كل محاولاتي البائسة في الخروج للعمل خارج القرية، مثلما كان يعمل زملائي أثناء الدراسة، لكنه كان يسمح لنا أن نعمل في بعض أيام الصيف، بعد أن يطمئن إلى رفقتنا في العمل بجني القطن، وكثيرا ما كانت تصحبني أمي، لأنني لم أثبت الجدارة المطلوبة في هذا العمل " [٣]، فالكاتب هنا التزم الصراحة في الكشف عن وضع أسرته المادي المتدني، وهو أمر يحسب لوالده المكافح، الذي أصر على مواصلة تعليم أولاده، بالرغم من تردي حالته المادية.

---

[١]– ابن الكاتب، ص ٢٩.

(٢)– ابن الريف، ص٦١.

(٣)– ابن الريف، ص٤١.

كما لم يتحرج الكاتب من ذكره لمحاولات العبث الطفولي، التي كان يفرغ فيها طاقته الحبيسة: " وكنت أخنق الفراخ الصغيرة، وظني أنني ألعب معها " [١]،" وأظنني حدثتك يا بني عن سذاجتي الطفولية يوم رأيت دجاجتنا وهي تحتضن بيضها، الذي لم تكن تمل احتضانه، فما أن سمعت أصوات (الكتاكيت) وهي تنبعث من خلال الريش، حتى اقتربت منها لأراقب الفراخ مراقبة المشوق، ثم دفعني الفضول إلى نزع قشرة إحدى البيضات التي لم يخرج فرخها، وأنا لا أعلم أنها حكمة الله التي قضت على هذا الفرخ أن يعمل مع أول شهيق يتنفسه على ظهر هذه الدنيا، لم أكن أعلم أنه التدريب الأول الذي يجتاز به الفرخ اختبار القدرات في الصراع مع هذه الحياة الدنيا التي أشاهدها، وألقن دروسها قبل أن أخرج إلى معترك الحياة، لقد كانت محاولة تدفئته محاولة عبثية، امتلأت بسببها ساحة البيت بالأهل والجيران، الذين هرعوا لإطفاء حريق مروع، كانت طفولتي الشقية جذوة ناره، وضوء شراره" [٢]، فهو كما ترى يكشف الستار عن طفولته، وما فيها من أعمال تخريبية، كادت أن تودي بحياة الأسرة.

ويقر كاتبنا ويعترف بعدم الوعي قائلا: " أما أنا فقد سطوتُ وأصدقاء الشارع على حقل بأطراف البلدة، كان يحوي العديد من الخضروات، ولم تكن هجمتنا إحدى ثورات الجياع الذين يسرقون ما يسد جوعهم، بقدر ما كانت عملا تخريبيا دفعنا إليه مجموعة من المحرضين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " [٣]، فهو – كما تلاحظ – يقرّ بعدم وعيه بالأحداث التي قام بها، ويوضّح أنه انساق وراء المحرضين والمخربين.

ومن مشاهد صدقه وصراحته، ذكره لمحاولة السرقة التي جرت على غير العادة، يقول: " كنت في هذه الآونة مشغولا بسرقة أخرى، إذ لم تستهوني المشاهدة كما استهوت أقراني، فقد استهواني سطح جدي، وتولد لدي غرام به، حتى بت أحلم باليوم الذي أستطيع فيه القفز على بيت الجيران، وسرقة القفص المليء بالكتب الدراسية، حيث كانت الرياح تداعب الكتب فتقلب الصفحات، وتظهر الألوان الزاهية المصورة لملابس أمل وعمر وعمي حسن، فكان لا بد من فكرة شيطانية قبل أن يحل الشتاء، فتذبل الكتب، وتذبل معها دهشتي وشوقي الجارف " [٤]، فتصرفه هذا

(١)– ابن الكاتب، ص٥٥.
(٢)– ابن الكاتب، ص٦٣.
(٣)– ابن الكاتب، ص٥٦.
(٤)– ابن الكاتب، ص١٠٥.

– كما قرأت– تصرف طفل، لا يدري بحقيقة ما يصنع، لكنه في ذات الوقت يكشف عن حبه للعلم و وشغفه بالقراءة والاطلاع.

ولم يكتف كاتبنا بعرض حقائق ذاتيّة تتعلق به، بل تعدّى ذلك إلى الكشف عن وقائع تتعلق بأقاربه، فكشف عن: " الأحذية ذات النصف نعل التي كانوا يشترونها من سوق (الإثنين)، ورحلتهم إلى (طنطا) كي يشتروا النحاس والألومينيوم لعمتي الحاجة، وتعبيراتهم عن الحرج الذي كان ينتابهم في سنوات الزواج الأولى، وهم يستحمون في (طشت) كائن في غرفة واحدة، كانت هي النوم والجلوس والحمام وغرفة الأطفال، وكل ما يملكون من حطام الدنيا " (١)

وبعد فهذه بعض المواقف التي وقف عليها الكاتب وصارح بها قراءه، وهي مشاهد قد نجدها في كل سيرة، وقد يخجل من ذكرها بعض الأدباء؛ فيعمد إلى نسيانها وتخطيها، وبعضهم قد لا يخجل من ذكرها، ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن كاتبنا لم يكن لديه ما يستره، أو يستحي منه، فالمواقف التي تحرى فيها الصدق والصراحة، تضيف إلى شخصيته ولا تنقص منها شيئا، وقد رأينا كثيرا من الأسر والشخصيات الناجحة التي يشار إليها بالبنان الآن، مرت بمثل هذه المواقف والمشاهد التي كاشف فيها الأديب قراءه، وأن هذه المواقف كانت بمثابة المخاض أو الألم الذي يسبق الإبداع.

ومهما يكن من محاولة الأديب التزام الصدق والصراحة، لكن لا شك في أن هناك أمورا لم تسعفه الذاكرة بذكرها، أو أنه تناساها؛ إذ لا يمكن للكاتب مهما بلغ صدقه، ومهما بلغت صراحته أن يكتب كل ما يعرض له في عالمه الخاص.

(١)– ابن الريف، ص٤٩.

المبحث الثاني: الميثاق الروائي

إن تعبير الكاتب عن تجاربه الخاصة وبلورتها من خلال عنصر التخييل، وتغييره لبعض الوقائع والأحداث، وتمويهه بذكر أماكن وشخصيات بديلة، ليس معناه الانسلاخ من ميثاق السيرة الذاتية، بل هي محاولة منه لتحويل الواقعي إلى الجمالي، وتحقيق المتعة والإثارة والتشويق لسيرته، ولا شك في أن هذا يمنح الكاتب قسطا من الحرية، التي تمكنه من إخفاء ما يشاء وإظهار ما يشاء، وكذا التحرك دون قيد في سرده لسيرته الأدبية، فحديث الكاتب عن سيرته بأسلوب مباشر، وكذا عرضه للحقائق جافة من شأنه أن يفقدها المتعة والإثارة، ويعرضها للذبول والتواري والنسيان: " فأن تتحول سيرته الذاتية وفق الانزياح الجمالي إلى ملحمة شعرية أفضل من أن تبقى تقريرية، وأن تتحول إلى سردية روائية أفضل بكثير من أن تبقى سردية تاريخية، وأن تكون درامية تشكيلية أفضل من أن تكون مجرد إنشائية سكونية " (١)

لذا فإن معانقة الخيال للحقيقة أمر محمود من شأنه أن يخفف من جفاف الحقيقة، ويساعد على تجاوز الفترات التي لا أهمية لها في حياة الشخصية، فسلاسة التعبير، ورشاقة العبارة، وتنامي الأحداث، وتطور الشخصيات، وحضور الخيال بمقدار، كل هذه أساليب من شأنها أن تعمل على إغراء القارئ بالاستمرار في القراءة والمتابعة، وتسهم في بناء سيرة ذاتية أدبية، ناجحة ومؤثرة.

والسؤال الآن: ما مدى التباس الرواية بالسيرة الذاتية في نص (ابن الريف، وابن الكاتب)؟ أو ما مدى التداخل بينهما؟ : "ويمكن أن تكون الإجابة أو بعضها في العنوان، وضمير الغائب، واختلاف اسم الشخصية، والخيال والانتقائية وما إلى ذلك؛ بمعنى أن تدخل السيرة الذاتية المجال الروائي من خلال منظورين: الأول عدم التطابق ولو شكليا أو ظاهريا بين السارد والشخصية، والثاني الإعلان عن وجود الخيال أو اللجوء إليه " (٢)

وهذا وذاك متحققان في سيرة الكاتب؛ بمعنى انتفاء التطابق ظاهريا، فـ(ابن الريف وابن الكاتب) لم يحملا اسم المؤلف، وكذلك الشخصية الرئيسة تحمل اسما يخالف اسم الكاتب، فالتطابق معدوم في الظاهر متحقق في الباطن، إذ هناك – كما سبق وبينا– في سيرة الكاتب آثار مباشرة وغير مباشرة، تؤكد التطابق بينهما، هذا بالنسبة للمنظور الأول، وأما عن المنظور الثاني وهو الإعلان عن وجود الخيال فقد صرح به الكاتب أثناء تقديمه لكتابه (ابن الكاتب) حيث يقول: " ولم يدر في خلدي وأنا أخط أولى صفحات (ابن الريف) أنني في طريقي لإنجاز سيرة بطعم الرواية،

(١)– وهج السرد (مقاربات في الخطاب السردي السعودي)، حسين المناصرة، ص ١٠١.
(٢)– وهج السرد (مقاربات في الخطاب السردي السعودي)، حسين المناصرة، ص١٠٢.

بعد أن أيقنت أن الصدق المطلق في سرد السيرة الذاتية يعد ضربا من ضروب الخيال، وأن كاتب السيرة عليه أن يمزج الحقيقة بالخيال حتى يتمكن من سرد الحقيقة منسوبة لشخوص غير الذين قاموا بها، طالما أن عمله سيقابل بأريحية لم يكن مثقال ذرة منها ليتحقق لو قال فعلتُ أو فعل فلان.

إنني ما زلت أتساءل حتى اليوم، ماذا كنت أريد أن أصنع هناك؟، أكنت أحاول الرواية فجاء العمل شبيها بها؟ أو كنت أحاول السيرة الذاتية، لكنني خفت من إضاءة مواطن مظلمة في حياتي، فهربت إلى خيال قصصي يضمن لي أن أظل هنا وهناك؟ أو كنت أحاول مد جسور التواصل بين الفنون الأدبية لتصبح أكثر فاعلية وتشويقا في الوقت ذاته، لأن القارئ سيقرأ عملين في عمل، وفنين في كتاب؟ " [١]

فالتواصل والتداخل بين السيرة والرواية متحقق في (ابن الريف، وابن الكاتب)، ومن ثم فهما سيرة ذاتية روائية، أو تجربة أدبية تتنازعها السيرة والرواية، ونستطيع أن نتبين ملامح هذا التداخل من خلال المطالب الآتية.

(١)- ينظر: ابن الكاتب، د. عبد الحميد بدران، ص١، ٢.

الحقيقة والخيال

لم تعد تكتفي السيرة الذاتية بالواقع والتاريخ فحسب، بل صارت تتكئ على السرد والتصوير، كما تسعى إلى تحقيق الترابط بين الأحداث، وتوظيف الحوار الذي يجسد المواقف، ويكشف عن بواطن الشخصيات، وكذا استخدام الخيال الذي يحقق لها الإثارة والتشويق والمتعة الجمالية، حتى صرنا نرى: " الشئ في عالم الفن أجمل مما كان عليه في عالم الواقع، حتى لو التزم المبدع بالواقعية في صياغة عمله الفني " (١)

وإذا كانت السيرة الذاتية فنا يعتمد على الحقائق، والرواية فن يعتمد على الخيال، فإن للخيال دورا في غاية الأهمية هنا؛ إذ يؤكد التماهي والتداخل بين السيرة والرواية في (ابن الريف، وابن الكاتب)، كما يرقى بالسيرة الذاتية من مظاهر السرد التاريخي الرتيب، وتبعثر الأحداث وتفككها؛ مما يمنحها عنصر التشويق والجمال.

ويلجأ كاتب السيرة الذاتية إلى الخيال؛ نظرا لصعوبة تذكره لأيام طفولته؛ إذ إن تذكر هذه: " الأحداث بحذافيرها أمر مستحيل، ولكن الخيال كفيل بنسج بقايا خيوط هذه الأحداث " (٢)، فإعادة صياغة هذه الأحداث، وابتكار أسماء جديدة للشخصيّات، والاستعانة بأوصاف تختلف عن تلك الواقعيّة، والحذف والانتقاء، يعتمد في المقام الأول على الخيال، ترى ذلك بوضوح في قوله: " لا أنكر يا بني أن هناك شخصيات كنت أقصدها بالفعل، فالشخصيات لا يتحدث عنها إلا وفي ذهنك شخصية قريبة الشبه بها في الحياة، حتى وإن لم تكن قابلتها أنت، وإنما سمعت بها من غيرك، فاستحضرت صورتها كأنك تراها، والشخصيات التي تحدثنا ونحدثها في رحلة الحياة الدنيا أكثر من أن يحصرها عد، فهي تختلف هيئة وسلوكا ووظيفة، وطبيعة، ومزاجا، مما يجعل الفرصة أمامك مواتية لاختيار ما يروقك منها " (٣)

فهو – كما ترى – يسعى للارتقاء بسيرته بشكلها الواقعي الحقيقي بما تحتويه من أحداث وتجارب وخبرات؛ حتى تخرج في أبهى حلة وأعذب مضمون وأعمق تأثير؛ لتكون بذلك قريبة من الرّواية.

---

(١)– السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، د. شعبان عبد الحكيم محمد، ص١٧٠، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٥م.

(٢) – السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، د. شعبان عبد الحكيم محمد، ص١٧٦.

(٣)– ابن الكاتب، ص٨٧.

وتستطيع أن تقف على بعض مظاهر الخيال التي وظّفها الأديب في كتابيه (ابن الريف، ابن الكاتب) من خلال قصته مع (هناء، وابن بثينة، وزوج بثينة، وعمته الحاجة، وزميله المريض) فأما (هناء) فالقارئ يشعر وكأنها عشق الأديب وفتاة أحلامه، لكنها في الحقيقة نسج من خياله، الذي يدل على البراعة والعمق، فمرة ترها رمزا لحالة نفسية يعيشها الأديب؛ إذ هي ليست شخصية بعينها وترى ذلك في قوله: " ويعرفون أن (هنا) هي سلوى، ونجوى، ونوال، ورقية، وهالة، وكل الأسماء التي دائما ما أرددها في شعري، وهي (هبة) التي قلت فيها:

يا سائلي كيفَ المُقامُ بدُونها نفسي فِداها فالجَوانِحُ مُلهَبهْ

فَهِيَ النَّسائِمُ والأَريجُ تَصَافيا في قَالَبٍ مِنْ نُورِها ما أَعْجَبهْ (١)

ومرة تراها رمزا لصفاء الريف وبساطته، يقول: " ربما كان ميلي لـ (هنا) سببا في ارتباطي بالريف وحبي له، ربما هي نكهة الصفاء التي كانت تغلف كل شيء في الريف، وربما هو القرب من مفردات الطبيعة أرضها وسمائها وحيوانها وطيرها، وعشبها وخضرواتها وحبوبها، وحطبها وتنورها وكانونها، وربما هو حنيني لأيام الطفولة التي عشتها بكل ما فيها من منغصات، فكانت ذخيرتي التي ألجأ إليها حين أحاول البحث عن مناطق آمنة يغلب عليها الرضا والسعادة، أذكر فيها أيام الشتاء المظلمة، التي ما يعكر الصفو فيها إلا بعد الإنسان عمن يحبه، وعدم رؤيته أياما معدودات، يتجرعها العاشق ولا يكاد يسيغها، حتى يرى وجه من يحب، إن الريف هو كل ذلك، طالما كانت (هنا) أحد مفرداته الرائعة، فليت أمي كانت تعلم ذلك " [٢] فـ (هناء) صورة (للريف) الذي يعيش في أعماقه، وطيفه الذي لا يفارق خياله، وينتقل معه في جميع مراحله.

وربما كانت (هنا) هي العاطفة والدافع وراء الكتابة، تلمح ذلك في قوله: " أتاني صوتها يتهادي من خلفي: (محمود ... يا محمود)، والتفت لأرى صاحبة الصوت، إنها هي، نعم هي، وقفتُ وكأني كنت أنتظرها.. وسرت شقاوتها القديمة في أوصالي، وغبت لحظات في براعة تنسيق ملابسها، وجميل مبسمها، إنها الحب الأول الذي صنع مكانا في قلبي أسماه (الحب)، وبنى مكانا في خاطري سماه الشوق، وحفر مكانا في خيالي سماه الطيف، إنها صاحبة قلمي وحبر محبرتي،

(١) – ابن الريف، ص٩٤، ٩٥.

(٢) – ابن الريف، ص٣٠.

وقنديل ليلي" [١]، فـ(هنا) هنا هي دوافع الشاعرية والكتابة التي تناديه، وتهيئه للإبداع، وتحثه عليه، ومن ثم فـ(هناء) هنا شخصية خيالية، استخدمها الأديب لدوافع عدة كما رأينا.

ومن مظاهر الخيال التي اعتمد عليها الأديب في بناء سيرته، والتي تؤدي إلى التماهي بين السيرة والرواية شخصية (ابن بثينة) التي نسجها من خياله وما صاحبها من أحداث وحكايات، أراد الأديب من خلالها أن يعكس صورة الشائعات، وسرعة انتشارها، ودورانها على ألسنة الناس – الذين تخصصوا في فن القص والتأليف، والإثارة، والتشويق– وخصوصا في الريف:" كنا نجد الأنس في حديثه ولثغة لسانه التي تكسب الحكايا نكهة خاصة، قلما تجدها عند غيره، فدائما ما يصدر الخبر منه مشفوعا بأسانيده الواهية، التي ورثها عن أمه الخالة (بثينة)، كنا نتحمل تدخينه في تلك الليالي، التي يحل فيها ضيفا على صحبتنا، مستمتعين بما يجود به من قصص.. فكثرت حكاياه وطابت أقاصيصه، فله في كل ليلة حديث، وفي كل حدث قصة، ولكل أمر تعليل محبوك"[٢]، فاختلاق الأديب لبعض الشخصيات، وتوظيفها، وإجراء الحوار بينه وبينها، وتحليله لدواخلها، واستبطانه لها؛ ليمرّر أفكاره عبرها، ويملأ فراغات الأحداث من خلالها، كل ذلك ساعده على أن " ينقل الفكرة الجامدة إلى مشهد حافل بالحركة والنبض والحياة " [٣]، فأضفى على النصّ حيويّة، وحركة، وجمالا.

ومن الخيال أيضا اختلاقه لموقف الدكتور (حسن) زميله في السعودية: " وذهبت وزوجتي في زيارة خاطفة بالسيارة إلى (بركة السبع)، حيث الشقة الجديدة لزميلنا (د. حسن)، وهالنا منظر الزوجة التي لم نكد نفطن أنها هي التي وقفت في استقبالنا، يا الله.. لقد هزل الجسم وخبا نور الوجه، وذهب ماء الشباب، وتحجرت الكلمات على الشفاه، وأخذت أعيد النظر في صالة البيت بعد أن أخذت مجلسي على كرسي فخم، فوقفت عيني على لوحة كبيرة مكتوبة بخط ديواني يصعب قراءته، تبينت في النهاية أنها آية الكرسي، ولوحة أخرى لزميلي وقت أن كان في عقده الخامس قبل سفره إلى المملكة، كان ضخم الجثة، تضفي شعراته البيض على وجهه إشراقا وتواضعا، وإلى جواره زوجته التي تصغره بعقد كامل، لكن نضارة وجهها كانت تكسبها رونق ابنة الثلاثين، قطعت ابنته هواجسي بخفة ظلها " [٤]، فالأديب– كما ترى– يتميز بعمق الخيال ورحابته؛ لدرجة أنه لم يفارقه حتى في توثيق سيرة حياته.

---

(١)–ابن الريف، ص١٠٦، ١٠٧.

(٢) – ابن الريف، ص٧٦.

(٣)– السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، د. شعبان عبد الحكيم محمد، ص١٧٣.

(٤) – ابن الريف ١٣٦.

ولا يقتصر الخيال عند أديبنا على الشخصيات غير الحقيقية أو المختلقة، بل تعداها إلى صياغة الأحداث وطريقة عرضها وبنائها؛ لأن تصوير " الأحداث في حدّ ذاته عمل تخيليّ، يعتمد على التذكّر والتداعي، والربط بين عناصر الموقف ليبرز أمام أعيننا وكأنّه شخصٌ ماثل أمامنا نراه رأي العين، وفي استبطان الكاتب لمشاعره ولداخله، ولمشاعر غيره الباطنية "[١]، يلعب الخيال دورا كبيرا، حيث استطاع – من خلاله –أن يحول سيرته إلى قطعة جمالية أدبية عن طريق وصف الأماكن، والمشاهد، والمشاعر والأحداث، ترى ذلك في قوله: " وأظنني حدثتك عن دجاجتنا العمياء التي رأيتها وهي تمشي بين أترابها في ساحة بيتنا، وكانت تتعثر أحيانا فتتردى كما تتردى الذبيحة عندما تفارق السكين رقبتها، لكنها لم تكن تمل من الحركة، كنت كلما تسلل الملل إلى نوافذ نفسي خرجت لأجلس أمام غرفتي في ساحة البيت وقت القيلولة؛ لأرى كيف تلتقط هذه الدجاجة الحب في سرعة عجيبة، وكأن الله قد أبدلها عينين في منقارها، وطالما كنت أفكر وأطيل التفكير، وكأنني أحاول استدعاء بيت شعر من ذاكرة الشعر العربي التي طالما أسعفتني بكل طريف، وكأن ما أراه هو كتاب الحياة الواسعة الذي يلوذ به المكلوم كلما أجهدته الشدائد" [٢]

ويلجأ إلى الخيال أيضا في وصف المكان، فيقول: " فهناك على بعد سنتيمترات من مكان الوالد (أبو العز)، يستقر معبر طيني بسيط، يفصل الشجر العتيق عن غرفة نائية، معدة لاستقبال الضيوف، كان صديقنا (العيسوي) يسند ظهره إلى جدار الغرفة، ثم يفرغ ما أفاء الله عليه من حصيلة تمثيلية، ما نمل سماع ما تكرر منها، هنالك فقط كنت ألاحظ القمر وهو ينصت سعيدا لسماع الحكايا، ويبتسم لنا وهو يدخر من إضاءته ليسلط الضوء على وجه (العيسوي) فيزيد رباعيته إشراقا، وهو يحكي ويقهقه، ونحن ننصت إلى الحكايا خاشعين" [٣]

ومن ذلك أيضا استخدامه للخيال في وصف بعض المشاهد الريفية التي عايشها في طفولته " ليتني كنت شاعرا وقت الطفولة حتى أهب الريف الذي أنبتني نباتا حسنا أفضل ما عندي من أحاسيس ومشاعر، كنت أشعر بها وأنا أتناول غذائي بين حقوله الخضراء، وثمار زروعه اليانعة، ورائحة الشاي التي كانت تنبعث من براده، فتحملها أنسام الريف إلى حيث تمتلئ بها رئتاي، فأحسها أطيب من رائحة أشهى شواء، وصوت السواقي وهي تدور في تؤدة، حاملة معها تاريخا لا ينسى لطفولتنا البريئة " [٤]

---

(١)– السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، د. شعبان عبد الحكيم محمد، ص١٧٢.

(٢) – ابن الكاتب، ص٦٤.

(٣) – ابن الكاتب، ص٧٢.

(٤) – ابن الريف، ص١٩.

ومن العناصر الخيالية التي تدني السيرة الذاتية من الرواية أيضا تلك القصص التي يجتمع لها مع أقرانه من الأطفال: " ثم تكون الاستراحة مع الحكايا المدهشة التي تحمل ببساطة أحلام اليقظة التي كانت تعوض الطفل عما كان يفتقده في حياته اليومية من مغامرات، وهي أحلام نمّتها الحكايا الخيالية التي كنا ننام عليها بصوت آبائنا وأجدادنا، عن بطولات أبي زيد الهلالي والزير سالم وقصص ألف ليلة وليلة والسندباد البحري " [١]، فالخيال – كما ترى– حاضر بطريق مباشر وغير مباشر؛ إذ هي بلا شك قصص تعتمد على الخيال في المقام الأول.

ومن ذلك أيضا، يذكر أولاده بما لذ وطاب من الأحاديث الشيقة، والحكايات العجيبة، يقول: " فأنت تذكر يوم قصصت عليك قصة البطلين (محمد وأحمد) اللذين حاربا (التنين) اللعين، فصارا حديث القرية بأسرها " [٢]، ترى ذلك أيضا في قوله مخاطبا ولده: " لقد ربيتك على الحكايا يا بني مذ كنت جنينا في رحم أمك، فقد كان لها في كل ليلة عرض سينمائي، أصنعه من خيالي، وأنتجه من عقلي، وأنفذه وأخرجه بلساني ونبرة صوتي، حتى تنام وديعة كالطفلة الصغيرة، كما تنام أنت تماما بتمام " [٣]، وهي قصص كان يقصها لأطفاله في صغرهم؛ بهدف غرس الشجاعة والبطولة في نفوسهم؛ وربما كانت الزاد الذي لا ينامون إلا من خلاله.

ناهيك عن توظيفه للخيال عند وصفه لـ (هناء)، أو لغيرها من المواقف والتجارب من خلال أشعاره المتناثرة في سيرته، يقول: " لكنني كنت كلما أسندت ظهري وغفوت، سبحت بخيالي، لأراها أمامي وكأن البعد قد فجر فيّ طاقات كامنة من الشوق، فكتبت وقتها:

وَسَبَحْتُ ما زَالَ الهُيامُ يَتُوقُ أنْ يَلقى (هِبَهْ)

وَبِريقَها المَعْسولِ يُروَى فَالأمَاني مُتعَبهْ

وَهُناكَ بينَ الغِيدِ قدْ عَرَفَ الفُؤادُ ظِلالها

وتَنَفَّسَ الصّعداءَ قلبي حِينَ هَامَ حِيالها[٤]

ومعلوم أن الشعر يستسلم فيه الشاعر لمخيلته التي تمده بالصورة تلو الصورة، والمشهد تلو الآخر؛ حتى تكتمل الصورة ويتضح المعنى.

---

[١] – ابن الكاتب، ص١٠٤.

[٢] – ابن الكاتب، ص٥٢.

[٣]– ابن الكاتب، ص ٥٠.

[٤] – ابن الريف، ص٤٧.

وصفوة القول إن الأديب هنا – وإن كان يحكي أحداثا واقعية تتعلق بحياته – قد استعان بالخيال الذي هو من خصائص الرواية؛ لتحويل تلك الأحداث إلى مشاهد نابضة بالحيوية والحركة، ولإثارة التشويق لدى القارئ، وإغرائه بالمتابعة، وملء فراغات الأحداث وما عجزت الذاكرة عن إدراكه؛ مما أحدث التماهي والتداخل بين السيرة والرواية.

الشخصية

إن الشخصية في السيرة الذاتية شخصية حقيقية تعيش الواقع في الغالب، أو قريبة منه، وعلى العكس من ذلك الشخصية في الرواية، لكن كاتب السيرة الذاتية حينما يصور شخصياته وينقلها إلى الصفحات الورقية أو إلى عالم الحكي، فإنها تصاب بشيء من التحوير والتغيير؛ نتيجة جعلها حية ومتحركة، وقوية الحضور والتفاعل، ولن يتيسر ذلك للأديب إلا إذا استبطن طواياها وتصورها، وحملها في عقله قبل أن يسطرها على أوراقه – حتى وإن كان الهدف من تصويرها نقل الواقع الذي عاشه– فلا غنى له عن التحوير والتغيير.

ومن ثم فإن هذا التغيير والتحوير والتصور لهذه الشخصيات، هو الذي يكسوها بجوار الحقائق والوقائع بالغطاء الروائي، ويحدث التداخل والتقارب بين جنسي السيرة الذاتية والرواية على مستوى الشخصية؛ بما يخلعه عليها من موروثات ثقافية، وسلوكيات اجتماعية ونفسية وخيالية.

وعند النظر في شخصيات السيرة الذاتية لدى الأديب (عبد الحميد بدران) نجد أنها تمتح من معين الرواية الكثير والكثير، فعلى سبيل المثال حينما نتأمل تصويره لشخصية (عمتي الحاجة) نجده يقول: " حرمت الولد فعوضها الله ثلة من إخوتي وأبناء عمومتي، فهي أم وأخت، وصديقة وناصحة، وفوق كل ذلك فتح الله لها مغاليق القلوب، فلا تقصد في أمر إلا قُضي... ومع إذاعة موعد المناقشة، عرف الفرح الحقيقي طريق بيتنا، وأقبل الأحبة من كل صوب، وتهادي إليّ صوت عمتي الحاجة، ووجهها يكاد يضيء من الفرحة، وهي تنزل صندوق المياه الغازية من فوق رأسها كفتاة عشرينية:

. ألف مبروك يا نور عيني.. ألف مبروك يا دكتور.. أنا نفسي في اليوم ده من زمان.. أنا فرحانة كأني رايحه الحجاز.. أي والله" [1]

إن شخصية (عمتي الحاجة) من الشخصيات المحببة إلى نفس الأديب، وتبدو من خلال تصوير الكاتب لها، أنها شخصية قوية لا تنكسر، وشجاعة لا تنهزم، فعلى الرغم من حرمانها من نعمة الولد وموت الزوج؛ إلا أنها قاومت معوقات الحياة ولم تستسلم لها: " خلعت خمارها كالعادة، وألقته على مكتبي، وجلست بجواري على السرير، كانت مستبشرة للغاية، قالت وهي تضغط على يدي: لما عمتك الحاجة توعد يبقى لازم تنفذ، عملت لك إشاعات من نار، وجاءتني الأخبار أن ابنة خالتك جاءها عريس، مهمتك بقي إنك تصر على موضوع الرسالة، وأنا عارفة إن خالتك لن

[1]– ابن الريف، ص١٠٠.

تطيق انتظار سنة واحدة " [١]، كما أنها شخصية مرحة وجريئة ومتحركة، فقد استطاع الأديب أن يعكس لنا هيئة الشخصية، وسلوكها، وثقافتها، من خلال الوصف والحركة، والحوار والتفاعل بينه وبينها، وبين بقية الشخصيات، وهذا الأداء –كما تلاحظ – أداء روائي حيث أوقفنا الأديب على جوانب الشخصية عن طريق الخيال والتصوير، لا عن طريق الخبر المجرد كما يحدث في السير والتراجم.

ومن هذه الشخصيات التي مزج فيها الأديب بين الواقع والخيال، فأخذت طعم الرواية وحسها، شخصية (بثينة): " فعلى يد هذه المرأة يمكن للمرء أن يخطب نصف بنات البلدة في يوم واحد، وعلي يديها دخلت الحكايا المصطنعة بيوتا لم يتسن لامرأة غيرها أن تدخلها، وقد روت هي في مقتل زوجها الأقاصيص المرعبة، التي جعلت من وسط البلدة مكانا مرعبا يصعب المرور فيه بمجرد انصراف المصلين من صلاة العشاء قديما " [٢]، فأنت ترى شخصية (بثينة) هنا معاينة لا خبرا، فهي امرأة تجيد القص، ذات قدرة على التأليف والحبك، تمسك بطرف الخيط، وتنسج عليه خيوطا.

ويمزج بين السيري والروائي فيصورها من خلال الحوار الذي يسهم في تطوير الأحداث، ويكشف عن قوة شخصيتها وتعدد مواقفها، فيقول: " وعلى الرغم من كل ما كنت أسمعه عن الخالة (بثينة)، لم أستطع أن أجهر بمواجهتها بترويج الشائعات الكاذبة، فدائما ما كانت تستريح من حملها الثقيل في رحلة العودة من السوق على سلم بيتنا، من أجل مواصلة الرحلة إلى بيتها بأقاصي القرية، وبينما كنت أنتظر عودة أمي وأختي من السوق في أحد الأيام مرت الخالة (بثينة) واضطررت للنزول استجابة لإشارتها ففاجأتني بقولها:

. مبروك الخطوبة؟

. بارك الله فيك، ومن العروس؟

. واحدة قريبتك أكيد، عمك اسماعيل قال لي ليلة الحادثة.

أدهشني الخبر، مثلما أدهشتني ثقتها في روايته، وبدأت رأسي تدور كالكرة، ولم أدر ما أفعل، على الرغم من أني كذّبت الخبر.." [٣]، فتصوير الأديب لشخصية (بثينة)، يقوم على إضاءة جوانبها المتعددة (الاجتماعية، والثقافية، والنفسية)، وتصوير أدائها وهي حية تتحرك وتتفاعل، بعيدا

(١)– ابن الريف، ص٧٣.

(٢) – ابن الريف، ص٥٦.

(٣) – ابن الريف، ص٥٩، ٦٠.

عن خبرها التسجيلي أو المجرد كما يحدث في السيرة والتراجم، ومن ثم استطاع أن يصور ظاهرة انتشار الشائعات – في الريف خصوصا– من خلال هذه الشخصية، والتي كان أحد ضحاياها.

ومن هذه الشخصيات التي رسمها الأديب بالطريقة الدرامية أو بطريقة الرواية شخصية (جده توفيق)، يقول: " ما زلت أذكر البيت ذا الغرف الثلاث، حيث كان يجلس جدي (توفيق) على أريكة كبيرة في صالة البيت، يتابع حظيرته، وما زلت أذكر كيف كنا ننتظر قدومه من بيته الآخر الذي يقع على بعد خطوات . انتظارنا للعيد الذي يحمل إلينا كل معاني البهجة والفرح، حيث كان يمثل لنا المصدر الوحيد للحلوى، في وقت لم تستسغ فيه أيدينا أن تقبض على القرش أو القرشين، حتى نذهب من أجل شراء الحلوى، بينما لم يكن أطفال الشارع قاطبة يملّون الذهاب إلى بيت (جدي توفيق)، الذي لم يعبس في وجه أحدنا يوما من الأيام.. ما زلت أذكر تلك المرأة التي جاءته باكية، ثم ما لبثت أن انكبت تقبل يده، وأنا أقف مشدوها، كيف تقول له المرأة المسنة (يا سيد) كما نقول نحن الأطفال الصغار، فما هي إلا دقائق حتى خرج جدي من حظيرة المواشي ووضع يده في الصديرى، وأخرج شيئا وضعه في يدها، فإذا بالابتسامة تعرف الطريق إلى وجهها، فتقبّل يده فرحة... كان اسم جدي توفيق يتردد في كل بيت من بيوت الحارة، فإذا غضب الصغار من حماقات بعضهم، هددوا بأنهم سيقولون له، مما يعني حرمانهم من الحلوى والبهجة، وإذا تخاصم الكبار لجأوا إليه ليحكم فيما شجر بينهم، إذ كان حكما بين المتخاصمين، وقاضيا بين المتنازعين، وملاذا لكل صاحب حاجة " [١]

فأنت تتعرف على شخصية الجد (توفيق)، من خلال الحدث، حيث يقدم الشخصية – على طريقة الرواية – وهي تتحرك داخل عملها القصصي، وتنمو بنمو الحدث نفسه، وتتراكم معلوماتنا عنها شيئا فشيئا، فالجد توفيق مرة (يجلس جدي (توفيق) على أريكة كبيرة في صالة البيت، يتابع حظيرته)، ومرة يساعد المرأة المسنة، ومرة (حكما بين المتخاصمين، وقاضيا بين المتنازعين، وملاذا لكل صاحب حاجة)، فظهور الشخصية بهذه الطريقة التدريجية من خلال تحركها، وتفاعلها مع الأحداث والشخصيات الأخرى، يبعث الشوق في نفس القارئ؛ لمواصلة اكتشاف مسار الشخصية، بخلاف الأسلوب التسجيلي المباشر الذي يلقي بالشخصية أمام القارئ دفعة واحدة: " إن تصرفاً بسيطاً من تصرفات إحدى الشخصيات، أو حواراً موجزاً بين شخصيتين، ربما يستطيع شيء من هذا كله، أن يؤدي ما لا تؤديه عشرات الصفحات التقريرية من إيحاء وتعبير" [٢]

---

(١) – ابن الكاتب، ص٧٨–٨٠

(٢)– تحت راية الاسلام، د. نجيب الكيلاني، ص ١٠١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢–١٩٨٢م

وعن طريق الحوار والحدث، يطلعنا على شخصية (هدى): " هرعت والدتي إلى الشارع كي تسأل المارة القادمين من داخل البلدة عن اسم المتوفى، بينما كنت أسترق السمع من خلال شيش نافذتي فلم أفلح في معرفة الاسم، وبعد محاولات متعددة أجاب أحد المارة والدتي أن اسمها (هدى)، كان كثير من النسوة قد انزوين في زاوية أمام بيتنا وكل واحدة منهن تحاول أن تدلي بدلوها في التعليق على الحدث في أسى، سمعت أصواتهن المختلفة تخترق نافذة غرفتي:

. هدى النجار.. يا لهوي.. أنا شيفاها امبارح.

. الموت بيختار يا أولاد.. دا عيّلة صغيرة.

. بيقولوا ماتت في حادثة بعيد عنك...

كانت (هدى) من أنقى فتيات القرية سيرة وسريرة، قضيت معها في المدرسة خمس سنوات، كانت فيها مثالا للطيبة والخجل، ورغم ذلك لم تكن تخجل من ملابسها القديمة، في الوقت الذي كنا فيه نتباهى بزينا الجديد في أول يوم دراسي، ولم تكن مثلنا تتسلم الكتب في اليوم الأول من الدراسة، لأنها كانت ضمن الطلاب الذين تعفيهم المدرسة من المصروفات... وكثيرا ما كانت تقابلني (هدى) عائدة من الحقل وقد وضعت ملابس الحقل فوق رأسها وكأنها مظلة تتقي بها حرّ الشمس، فلا أذكر إلا ابتسامتها الصافية، وهي تقول لي (ازيك يا أستاذ محمود.. ربنا يبارك فيك يا رب) " [١]

ومن خلال ما سبق يمكن القول إن تصوير الأديب لشخصياته هنا، تصوير وظيفي؛ فهو لم يقدم شخصياته بطريقة السير الواقعية، والتراجم التي تعتمد على التأريخ والتسجيل، وإنما قدمها بطريقة فنية وجمالية؛ لتؤدي وظيفتها داخل النص.

الزمـــان

الأصل في البناء الزمني للسيرة الذاتية، أن تلتزم الخط الزمني الدقيق في ترتيب الأحداث، بمعنى أن تسير الأحداث فيها سيرا متتابعا، فتبدأ ببداية حياة صاحبها، وتنتهي بآخر حدث للفترة الزمنية التي يقف عندها الأديب.

وحينما ننظر إلى النص الذي بين أيدينا (ابن الريف، وابن الكاتب) نجد الأديب يجنح فيه إلى الأسلوب الروائي، فيخرج عن التتابع الزمني المألوف الذي تلتزم به أحداث سيرته، فمرة تراه

(١) – ابن الريف، ص١٠٩، ١١٢.

يتجاوز عن فترة زمنية معينة، ومرة تراه يتوقف عند فترة زمنية أخرى، ومرة يلجأ إلى الحذف [١] والإسقاط وغير ذلك مما يفعله الروائيون من وسائل الخروج على المألوف، بقصد جذب القارئ، وكسر الرتابة، وذلك من منطلق الإحساس بالزمن والتأثر به والتفاعل معه، ومن ثم يأخذ الزمن – هنا– شكلا من أشكال الرواية.

وتستطيع أن تلمح ذلك في استرجاعه وعودته إلى الوراء، في قوله: " وأذكر كيف كان الخوف يتملكني في ليالي الشتاء، عندما يقسو السحاب علينا، فيفرغ أثقاله على مباني قريتنا الهزيلة، وكيف لم يقو سقف بيتنا الضعيف على حفظ الماء، فبتنا ليلتنا وقد رافقتنا أوعية الطعام التي صففناها كي تحتفظ بالماء النازل من السقف، مشوبا بالحمرة، من أثر الدخان الذي تشربه السقف، ولا أدري كيف قفز إلى ذهني قول الله تعالى (فخرّ عليهم السقف من فوقهم) وكنت وقتها أحفظ في سورة (النحل) فأتخيل بعقلي الطفولي أن الآية نزلت في هذا المشهد الذي نحن فيه، استئناسا بالمعنى العاميّ لكلمة (خرَّ) " [٢]

فالسيرة وإن كانت تقوم على الاسترجاع [٣] والتذكر في الأساس، لكن صورة الاسترجاع الزمنية –هنا – صورة روائية بكل ما تعنيه الكلمة، من الإحساس بالزمن والإبداع في تشكيل صورته، والتخيل في رسم عناصره، فحديثه عن (ليالي الشتاء) ليس مجرد حديث عن زمن مجرد أو زمن سيري، بل هو حديث عن الانفعال الذي يتركه الزمن في نفس الأديب من مشاعر الخوف، والترقب، والألم – نتيجة هذا الشتاء القاسي– وليس مجرد تسجيل للزمن المجرد كما يحدث في السيرة.

وترى ذلك أيضا في قوله: " فكانت ذخيرتي التي ألجأ إليها حين أحاول البحث عن مناطق آمنة يغلب عليها الرضا والسعادة، أذكر فيها أيام الشتاء المظلمة، التي ما يعكر الصفو فيها إلا بعد الإنسان عمن يحبه، وعدم رؤيته أياما معدودات، يتجرعها العاشق ولا يكاد يسيغها، حتى يرى

---

[١]– يقصد به:" إسقاط فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصة وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث " ينظر: بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ص١٥٦. الناشر المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.

[٢] – ابن الريف، ص ١٣.

[٣]– وهو يعني: " الإشارة إلى حدث – بعد فواته– سابق للحظة القص التي نجد أنفسنا فيها " ينظر: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة رضوان ظاظا، ص٢٤٩، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير ١٩٧٨م. أوهو: " مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة "، ينظر: المصطلح السردي: جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، مراجعة محمد بريري، ص ٢٥.

وجه من يحب، إن الريف هو كل ذلك، طالما كانت (هنا) أحد مفرداته الرائعة، فليت أمي كانت تعلم ذلك.

ثم أعود مرة أخرى فأذكر يوم نودي في القرية على حضور أول مناقشة لرسالة علمية جامعية لأحد نوابغ القرية، فيرتد إليّ صوت أبي وهو يناجي ربه: (يا رب يا محمود يا ابني.. يا رب)، فأقول لعله خاف أن يتبخر حلمه وتذوب أمانيه كما يذوب لوح الجليد في يوم حار.

ووجدتني أعود إلى حديث الشعر فأذكر المسابقات التي جمعتني بأصدقاء لم يعتنوا كثيرا بتوطيد العلاقات، لكنني حفظت لكثير منهم أهم ما كان يتميز به، حفظت لـ (إكرامي) نكته الطبيعية ونفسه الصافية، وتركيزه على تحقيق الدهشة في شعره " [١]، فكما ترى يسترجع الأديب أكثر الأوقات إحساسا بالسعادة كأوقات مسابقات الإبداع الشعري، التي تجمعه بأصدقائه وزملائه، وأوقات حضور المناقشات العلمية، ودعوات والده له، وحلمه بوصوله للجامعة، فالزمن كما تلاحظ مبني على التفاعل والتأثر والتأثير والتوظيف.

كما كانت أكثر الأزمان التي يحتفي بها ويسترجعها، ويوظفها هي تلك الأوقات، التي يسعد ويمرح فيها مع أقرانه، يقول: "ما زلت أذكر شواطئ الترعة في قريتنا الجميلة التي كانت المصيف الدائم لكل من أراد الاستحمام والسباحة من الأطفال في الصيف، فما على الماهر بالسباحة إلا أن يسلم جسده للموج، ليسير به كما تسير أسراب البط خلف قائدها الذي يعبر بها إلى حيث المقيل في ظل أشجار الصفصاف المقابل لصهريج القرية" [٢]

ولايزال الأديب يلح على التوظيف الدلالي للزمن: " لقد كنت طفلا حين كان أبي يردفني خلفه على ظهر الحمار، وكنت أتشبث به جيدا ونحن نجوب الحقول في الظلام الدامس، حتى لا يخطفني المارد الذي كنت أسمع عنه في الحواديت الليلية، وأنا ابن السنوات الخمس، وكنت طفلا حين كان يصحبني عمي معه إلى الحقل ليلا وأنا ابن العاشرة، فيحوطني ببطانيته حتى لا أقع فريسة سهلة للناموس هناك، لكنني أذكر أنني لم أهب الليل وقتها، فبين الماء والطين وضوء القمر تشكلت بشرا سويا، يحس الجمال ويقدره، ويدرك عظم المسئولية الملقاة على كاهله يوم قضى الله عليه أن أكون أكبر إخوة، ينظرون إليّ بعين المثال، ويتطلعون إلى محاكاة جميع ما أفعل " [٣]،

---

[١]- ابن الريف، ص١٣٠

[٢]- ابن الكاتب، ص١١٨.

[٣]- ابن الكاتب، ص٦١.

فاسترجاعه لزمان الطفولة، استرجاع له دلالته ووظيفته؛ إذ يشير من خلاله إلى تحمله للمسئولية وتصدره لها، وقد أخذ ذلك على عاتقه؛ نظرا لكونه أكبر إخوته واتخاذهم له قدوة في الأقوال والأفعال.

ولا يقتصر الزمان عنده على الاسترجاع والعودة للوراء، فبجانب هذا الاسترجاع الذي سيطر على مساحة السرد، والذي يعكس حنينه لتلك الفترة من حياته، تراه أيضا يتخطى الحاضر فيستبق الأحداث الزمنية القادمة، ويتطلع إليها أو ينتظر وقوعها، ترى ذلك أثناء حديثه عن صديقه: " مضت عشر سنوات كاملة، فكيف حال ابنه الذي رأيته وهو يتأهب لدخول المدرسة، وكيف حال ابنته التي تكبر أولادي بخمس سنوات؟، وهل إذا قابلت أحدهما في الطريق سوف أهتدي إليه، أم أن آلام السنين سوف تقف حائلا دون أن أهتدي، كل ما أخشاه الآن أن يخبرني أحد الأصدقاء بزواج ابنته قبل أن يخبرني هو به " [١]

ترى ذلك أيضا في حواره مع زميله (أحمد) الذي تضمن حديثا عن المستقبل: " أتاني صوته عاليا هذه المرة، وكأنه يحاول أن يوقظني من بحر الذكريات الذي غرقت فيه:

. أملي أن تكون معيدا في الكلية.

وبابتسامتها المعهودة طوقتني (هنا) بعبارتها الذهبية، لتدلل على أنها تتابع حوارنا:

. إن شاء الله ستكون معيدا " [٢]، فالحوار كما تلاحظ تخطى الزمن الحاضر؛ لاستشراف المستقبل، المتعلق بمستقبل الأديب عبد الحميد بدران.

ومن ذلك أيضا وصيته لأولاده حول ما ينبغي أن يكونوا عليه الزمن القادم: " وأظنك ما زلت تذكر يوم أوصيتك أنت وأخاك عندما تكونان طبيبين في المستقبل أن تجعلا يوما للكشف المجاني في قريتكما الصغيرة، وما تزال صورة الطبيب الذي كشف علي لأول مرة محفورة في مخيلتي " [٣]

---

[١]– ابن الريف، ص٥٤.

[٢]– ابن الريف، ص٤٦.

[٣]– ابن الكاتب، ص٥٢.

ويأخذ الزمن عند الأديب–هنا– حس الرواية وطعمها من خلال التقنيات السردية التي يستخدمها الروائيون، فيتوقف بالزمن مرات كثيرة، وهي ما تعرف بتقنية (الوقفة) [١]، وقد بدا ذلك في وصفه للأماكن الريفية الجميلة واللحظات السعيدة التي عاشها هناك، كما يظهر ذلك أيضا من خلال حذفه لبعض الفترات الزمنية التي لا طائل من ورائها، بقصد تسريع السرد، وتخليصه من الملل والرتابة، ترى ذلك في قوله: " ولا زلت أعجب كيف قضيت عاما كاملا في المملكة دون أن يزاملني الجوهري في المكتب، كما كان يزاملني لأربع سنوات مضت، كنت كلما رأيت سيارته التي باعها لزميلنا التونسي، أتخيل أن الجوهري سوف ينزل منها، ويطوقني بابتسامته الرائعة التي ميزه الله بها عن كل الذين قابلتهم في هذه التجربة الفريدة " [٢]

فالأديب – كما تلاحظ– صرح بمرور الأعوام (عاما كاملا.. لأربع سنوات مضت)، متجاوزا بذلك ما قد وقع فيها من أحداث، وكأّنه كان متعجلا لاطلاع القارئ على الحدث الأهم، وهو الكشف عن طبيعة هذه الشخصية (الجوهري) المبتسم، المتسامح، ومدى شوقه له، وألمه لفراقه.

وترى ذلك أيضا في قوله: " إنه أنفس كتاب صاحبني في حياتي الجامعية، لقد مضت عشر سنوات كاملة، فلا تسألوني كيف مرّت دون أن يسأل عليّ أو يتحسس أخباري، لقد خبا ذكره فجأة فخبت معه قطعة من أفضل أيام عمري، وخبا عقد ونصف من الذكريات السارة التي حفرت على جدران بيتنا" [٣]

فهو لم يقدم للقارئ تفاصيل الأحداث التي وقعت خلال العشرة الأعوام المذكورة في النص السابق، ولم يطلعه على شيء منها، فكل ما ذكره متعلق بالنتيجة المترتبة على اختفاء صديقه غير المبرر.

ويمكن القول إن الأديب–هنا– لم يقدم الزمن مجردا كما يقدم في السيرة، وإنما مزج في تقديمه بين السيرة والرواية، فرأينا الاسترجاع بنسبة كبيرة، ورأينا الاستباق بنسبة محدودة، كما رأينا الحذف والانتقاء لفترات حياته، كذلك رأينا تقديمه للزمن محملا بالدلالات والمعاني والوظائف، ناهيك عن امتداد الزمن وطوله كما في الرواية، فهو يبدأ سيرته بعبارة توحي بطول الزمن: " أحاول الرجوع

---

[١]– و: " تمثل الوقفة أقصى بطء يصيب السرد؛ إذ تتعطل حركته تماما، وتتوقف القصة عن التنامي، وتعلق الأحداث إلى حين انتهائها" ينظر: شعرية السرد، تحليل الخطاب السردي في مقامات الحريري، عمر عبد الواحد، ص٧٦، دار الهدى للنشر والتوزيع.

[٢]– ابن الكاتب، ص٨٦–٨٧.

[٣]– ابن الريف، ص٥٣.

بذاكرتي إلى الوراء حيث المدرسة الابتدائية ذات الطوابق الثلاثة، إلى حيث زملائي الذين نحتت صورهم بجميع تفاصيلها في مخيلتي، على الرغم من أننا لم نجتمع بعدها في أي فصل دراسي، لقد كان هذا المكان أول عهدي بالدنيا التي تمثل لي ما بعد الحارة التي ولدت فيها " [١]

فالنص كما ترى يعكس مساحة الزمن بين الزمن الفعلي الذي كتب فيه المؤلف سيرته، والزمن الذي وقعت فيه الأحداث ويبدأ بالميلاد والحارة والمدرسة الابتدائية... وتنتهي بلحظة سرد المؤلف لهذه الأحداث وهي مدة تزيد على الأربعين عاما.

[١]- ابن الريف، ص٥، ٦.

المكان

يعد المكان المسرح الذي تدور عليه حياة الشخصية وسيرتها فهو: " يؤدي دورا بالغ الأهمية في تشكيل السيرة الذاتية بوصفها فنا سرديا ينهض على استيلاد مكان معين ومحدد له مرجعية واقعية معروفه لكنه في الوقت نفسه ينفتح على مجال تخييلي مقيد يتأنسن فيه الكثير من صفاته وخصائصه وأجوائه، وتأخذ بعدا إنسانيا بمعية الشخصية " (١)؛ لذا فإن المكان يؤدي دورا رئيسا في (ابن الريف، وابن الكاتب)؛ إذ هو مسقط رأس الأديب ومحيطه الذي عاش فيه، واحتك فيه بالشخصيات الأخرى، كما أنه يمثل الماضي والذكريات، والحنين الذي يربط الأديب في هذه السيرة، بهذه البقعة وتلك الشخصيات والأحداث، التي تظهر من خلال هذا العنوان المكاني الدال (ابن الريف)، فالأديب –وإن انتقل إلى المدينة وغادر الريف– لم يمح من الذاكرة ما وقع من أحداث في هذا المكان، كما لم يبدد الشوق والحنين لهذا المكان على الرغم من مرور الوقت.

ويأتي وصف المكان في (ابن الريف، وابن الكاتب) حافلا بمظاهر الخيال، التي تدعم الميثاق الروائي؛ مما يؤدي إلى تراجع سلطة الجانب التسجيلي التاريخي لهذه السيرة، فالمكان يصبح مكانا روائيا بقدر ما يمنحه الأديب من روح الرواية، وذلك من خلال توظيفه ووصفه وصفا جماليا عن طريق اللغة الشاعرة التي تنبض بروح المكان وحضوره الفاعل، بمعنى أن يتحول المكان إلى كائن حي، لا مجرد كومة من الجدران أو الأثاث الذي يركز الأديب على مظهره الخارجي دون سواه، أو الوصف التسجيلي الذي يفرغه من كل دلالة ومحتوى.

ومن ذلك وصفه للمكان – مسقط رأسه وملعب صباه – في ثوب روائي : " كان الفجر قد تنفس بعد أجازة العيد، ونفحت القرية مصابيح ربانية، أضاءت الكون شيئا فشيئا، وكانت العصافير على الشجر المجاور لبيتنا تعزف لحنا متكررا من الحث على كسب الرزق في كل صباح، كنت أرى قطرات الندى التي تجمعت على أشجار الجزورين وهي تتساقط متتابعة وكأنها مطر خفيف يداعب ذرات التراب المجتمعة تحتها، وصوت العصافير ما يزال عالقا بأذني، يكرر نفسه مرات ومرات، وكأنه يتصارع في التكرار والصمود " (٢)

فحين تقرأ تجد نفسك أمام لوحة فنية، توضح هيئة المكان الذي نشأ فيه الأديب، وتبعث فيه الحياة والحركة، حتى تشعر وأنت تقرأ كأنك أمام شاعر رسام، لا سيما وأنت تشعر بـ(تنفس الفجر)

---

(١)– التشكيل السير ذاتي، التجربة والكتابة، د محمد صابر عبيد، ص٩٧، دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٢م.

(٢) – ابن الريف، ص٢٢، ٢٣.

وترى (ونفحت القرية مصابيح ربانية، أضاءت الكون شيئا فشيئا)، وتسمع (وكانت العصافير على الشجر المجاور لبيتنا تعزف لحنا متكررا) فالمكان كما ترى لم يكن مجرد مكان، بل مكان يعكس عشق الأديب لجمال الريف ومسقط الرأس البديع.

وترى ذلك أيضا في قوله: " فالريف حياتي وعشقي، وجلدي الذي لا أستطيع أن أنسلخ منه، فيه لهوت ولعبت، وذاكرت وعشقت، وسعدت وتنزهت، وراقبت زرعي وهو ينمو على سبحات أفكاري ورحلات مذاكرتي، ليتني كنت شاعرا وقت الطفولة حتى أهب الريف الذي أنبتني نباتا حسنا أفضل ما عندي من أحاسيس ومشاعر، كنت أشعر بها وأنا أتناول غذائي بين حقوله الخضراء، وثمار زروعه اليانعة، ورائحة الشاي التي كانت تنبعث من براده، فتحملها أنسام الريف إلى حيث تمتلئ بها رئتاي، فأحسها أطيب من رائحة أشهى شواء، وصوت السواقي وهي تدور في تؤدة، حاملة معها تاريخا لا ينسى لطفولتنا البريئة " [١]

فوصفه المكان بهذا الأسلوب الراقي والأدبي، يعكس مدى الترابط بين الأديب وهذا المكان، كما يكشف عن قوة العلاقة الروحية بينهما؛ إذ يصير المكان هنا مجسدا للتفاعل الحسي والمعنوي الكائن بين الشخصية والمكان، وهذا أمر يزيد من ميثاق الرواية، ويؤكد التماهي بين السيرة والرواية.

وحينما تحدث عن (المدرسة) لم يتحدث عنها بأنها مجرد مكان، بل دفعه حسه الروائي إلى تصويره تصويرا دلاليا وجماليا، يقول: " لقد كان هذا المكان أول عهدي بالدنيا التي تمثل لي ما بعد الحارة التي ولدت فيها، وما بعد أبنائها الذين ألفتُ وجوههم وألفوا وجهي، فلم نستسغ اللقمة إلا إذا أكلناها معا، ولم نتجرع الماء إلا إذا صببنا باقي الأكواب على ملابسنا الرثة، نلطف بالماء ما عسى أن تصنعه الشمس بأجسادنا الضعيفة.

كانت المدرسة الابتدائية شاهدا على أول اختلاط مشروع بين الطالب وزميله وزميلته، وبوابة الخروج من محيط الأسرة الضيق إلى رحابة الحياة التي عرفنا من خلالها كيف يكون الأستاذ مقدسا، وكيف ننصت له خاشعين، وكيف نخاف من أخطائنا المنزلية إذا علم بها في ساحة الدراسة، وكيف ننزوي في المنعطفات إذا لمحناه قادما من بعيد، وترسخ في أذهاننا في المدرسة معنى أن يكون الواجب مقدسا، وألا تطلع عليه الشمس إلا وهو قابع في كراساتنا التي لم تكن تعرف شكلا آخر إلا أغلفتها التي صممها المصنع لها، وعرفنا في المدرسة كيف تتقاذف إلى أذهاننا أسماء زملائنا مقرونة بصورهم وملابسهم وسماتهم وردود أفعالهم أمام مدرس اللغة العربية

[١] – ابن الريف، ص ١٩.

الذي كانوا يهابونه مهابة الأب " [١]، فالمكان (المدرسة) هنا لم تكن مكانا لتسجيل الأحداث التي وقعت للأديب بطريقة السيرة، وإنما جاء ليؤدي وظيفة – على طريقة الرواية – وهي إبراز مكانة المدرسة ودورها الإيجابي في حياته وحياة زملائه.

وفي معرض مقارنته بين بيته الذي كان، وبيته الحاضر، يقول: " لقد عدّلنا من هيئة البيت كثيرا يا بني، فكانت أقفاص الحمام معلقة فوق باب غرفتي، ولم أكن أربيه ترفا كما أربيه الآن، وأنفق المئات في اقتناء سلالاته وأنواعه، فقد كان عماد البيت إذا همت أمي بالذهاب إلى السوق، وكانت الجنيهات الأربعة كفيلة بأن تفي بحاجتها من السوق وقتها، وكان الحمام أحد أهم الأشياء التي حببتني في هذا البيت، وعلى إثر وجوده عرفت العصافير طريق بيتنا، فعششت وزقزقت، وباضت وأفرخت " [٢]، فالبيت كما تلاحظ بسيط جدا، يكشف عن حالة الأسرة الاجتماعية، وبساطة الريف، وهو كما ترى يعكس شخصية الأديب فيكشف لك عن بساطة شخصيته ورهافة مشاعره؛ إذ المكان امتداد لصاحبه، ومن ثم فرسم المكان رسم لصاحبه وتعبير عنه.

وتبدو جماليات المكان المغلفة بروح الإحساس الروائي، أثناء حديثه لابنه عن تحمله للمسئولية في سن مبكرة: " كان القمر يطل على العاشقين بنوره الصافي، فيغلف الأجواء بسكون وطمأنينة عجيبة، ومن ثم آنست وحدتي، وأنا أردد كلمات جدك في ذاكرتي، وأحاول تطبيقها على الوجه الأمثل، فقد نجحت تجربتي في بذر القمح والأرز من قبل، وكانت مصدر إعجاب جدتك وجدك؛ لأن كل ذلك قد تم في ضوء النهار، لكن الوالد قد اختار الوقت لعلة دلني عليها بعد ذلك، وما علي إلا أن أسمع وأطيع، قسمت الأرض في ذهني قسمة عقلية كما أوصى، وأخذت طريقي في المسار الأول ثم الثاني ثم الثالث، أنثر حب البرسيم فآراه يقبّل الماء محدثا موجات صغيرة، كنت أسير على هداها، حتى لا أضع البذور على البذور، وعدت إلى البيت أرجف من شدة البرد، لكنني تدفأت بوجه أبي الذي أضاء إشراقا " [٣]

فأنت ترى هنا صورة شعرية للمكان، يغلب عليها الطابع الرومانسي الذي تحسه في قوله: (كان القمر يطل على العاشقين بنوره الصافي، فيغلف الأجواء بسكون وطمأنينة عجيبة) وهو أسلوب لا يتوافر إلا لمن له حس شاعري، يمزج من خلاله بين الواقع والخيال.

---

[١] – ابن الريف، ص٥،٦.

[٢]– ابن الكاتب، ص ٢٩.

[٣]– ابن الكاتب، ص

وتراه يعود بذاكرته لاسترجاع ما ترسخ في ذاكرته من تلك الأماكن : " وأذكر التنزه في الحقول أثناء المذاكرة، وأذكر حين كنا نقف صفوفا لنشتري قطع الثلج التي تبرد الماء ومنقوع التمر والعرقسوس، وأذكر أطباق المأكولات الشعبية المتبادلة بين الجيران قبل مغيب الشمس بلحظات، وإفطار الأطفال في مجموعات أمام البيوت، وأذكر ما كنا نعانيه من سقوط المطر، وفرحة داخلية تملأ صدور الفلاحين بهذا الخير الذي تزهو به حقول البرسيم والقمح والفول، وأذكر الالتفاف المشروع حول الموقد الفخاري من أجل الحصول على دفقة من دفء، يغيث البدن في ليالي الشتاء الباردة " [١]

" وهناك على بعد أمتار، وحين يسند ظهره إلى الشجرة القريبة من غرفته تخرج الحكايا الطيبة لعمي محمد يوسف، مشربة بصوت ملائكي، تتنازعه الابتسامة الصافية، والبحث عن المدهش المعجب من حكايا البسطاء، فنكاد نستلقي على ظهورنا من الضحك، ونحن نأنس بالعبير القادم من الحقول خاملا لم تمسسه أنف، لقد كان يحدثنا عن البسطاء ومواقفهم، ويحدثنا عن زواجه وإنجابه، والزيجات القديمة التي جعلت البلدة أقرب إلى شبكة من العلاقات والأنساب، كان يحدثنا كيف أصبح ابنه (خالد) أخا في الرضاع لكثير من أبناء الشارع، وكنت أجيل الطرف في وجه خالد، ثم أسبح بالخيال في كل بيت ذكره، فأرى في زميلنا شبها من ذلك البيت، لكنه ما نسي أن يحدثنا عن غضبه وعصبيته حين يدلف خالد إلى المرآة صباحا لينسق ملابسه، وهو يتابعه بنفس العصبية كل يوم، فما تغير خالد، ولا تغير والده، لأن جينات التؤدة قد سرت في دم خالد من أمهاته اللاتي أرضعنه، فلم يعد يوسفيا خالصا " [٢]

فشاعرية المكان لازمة لا تفارق الأديب، يقف وراءها حسه الروائي وخياله الخصب، الذي يجعل قارئه في حالة من الانبهار والتشوق، والسؤال أهذا النص سيرة أم رواية؟!!

ويمكن القول إن المكان عند الأديب/ عبد الحميد بدران، لم يأت مجردا، كما لم يقتصر على الخبر المجرد، الذي يذكره بمجرد مشاهدته لأول مرة، بل يذكره لأنه عاش فيه وتأثر به، وتفاعل معه، ومن ثم فتصويره للمكان – بالرغم من حقيقته– تصوير يقوم على مزج الواقع بالخيال، والتحوير، والتوظيف الذي يقوم عليه الفن الروائي.

---

[١] – ابن الكاتب، ص ٦٢.

[٢]– ابن الكاتب، ص ٧٠.

لغة روائية

إن اللغة في السيرة تختلف عن اللغة في الرواية، ففي الغالب عندما يكون الكاتب كاتبا للسيرة فإن لغته تنحصر في الخبر المجرد، أو السرد الإخباري، ونقل الأحداث مجردة من اللوحات الإبداعية، والتغيير والتحوير، والصور البلاغية، على العكس تماما من لغة الرواية فالكاتب حينما ينحاز إلى التعبيرية والوصف وتوظيف الزمان والمكان والحوار، والجوانب الفنية والإبداعية، وامتزاج الواقع بالخيال في كتابة سيرته فحينئذ يحدث التماهي والتداخل بين الجنسين، بما يحقق المتعة الفنية والجمالية للعمل الأدبي، وهذا ما فعله الدكتور عبد الحميد بدران في كتابيه (ابن الريف، وابن الكاتب)، فاتسمت لغته بالتنوع والثراء والشعرية، وتوظيف الوصف والصور الجمالية، والاقتباس من القرآن الكريم، والحضور الواضح لشعره الذي يقرضه في كل موقف وحدث.

وتستطيع أن ترى ذلك في افتتاحه السلس الذي يشبه طريقة الروائيين، حيث يجعل القارئ أمام حالة من الاندماج النفسي مع المكان والزمان والحدث والشخصية، يقول: " أحمد الله أنني لم أكن أحد أبناء الطبقة المتوسطة، فربما لو كنت أحد أبنائها لما كنت حريصا على الجد في تحصيل دروسي، ولما كانت دعوات أمي تحاصرني مع كل أذان تسمعه، وربما ما كنت عُدت بالذاكرة يوما ما إلى حيث طفولتي المعذبة، إلى أحلى عذابات الدنيا، حيث تتعامد أشعة الشمس في بلدتي على أبناء الفقراء، لتمنحهم طاقة لا يقدر على تحملها أبناء الأغنياء مهما كانت قوة مظلاتهم وصلابة أجسادهم، أحاول الرجوع بذاكرتي إلى الوراء حيث المدرسة الابتدائية ذات الطوابق الثلاثة، إلى حيث زملائي الذين نحتت صورهم بجميع تفاصيلها في مخيلتي، على الرغم من أننا لم نجتمع بعدها في أي فصل دراسي، لقد كان هذا المكان أول عهدي بالدنيا التي تمثل لي ما بعد الحارة التي ولدت فيها" (١)

فالقارئ يتناول هذا العمل على أنه سيرة ذاتية، وسرد ذاتي، لكنه سرعان ما يجد نفسه أمام سيرة روائية، وذلك من خلال التأمل والإحساس الصادق في عمق التجربة الحياتية، وما تحمله من أسلوب قصصي مشوق، ومتدفق.

ومما ساعد على التماهي والتداخل بين السيرة والرواية لدى الدكتور عبد الحميد بدران هو التوسع والامتداد إلى جزئيات حياته والوقوف على دقائق الأشياء، كما يحدث في السرد الروائي: " وأذكر كيف كان الخوف يتملكني في ليالي الشتاء، عندما يقسو السحاب علينا، فيفرغ أثقاله على

(١)- ابن الريف، ص٥، ٦.

مباني قريتنا الهزيلة، وكيف لم يقو سقف بيتنا الضعيف على حفظ الماء، فبتنا ليلتنا وقد رافقتنا أوعية الطعام التي صففناها كي تحتفظ بالماء النازل من السقف، مشوبا بالحمرة، من أثر الدخان الذي تشربه السقف، ولا أدري كيف قفز إلى ذهني قول الله تعالى (فخرّ عليهم السقف من فوقهم) وكنت وقتها أحفظ في سورة (النحل) فأتخيل بعقلي الطفولي أن الآية نزلت في هذا المشهد الذي نحن فيه، استئناسا بالمعنى العاميّ لكلمة (خرَّ) " [١]، فلم يكتف بالسرد المجرد الذي يعتمد على نقل الظاهري بعيدا عن التأثر والإحساس بالوقائع والأحداث، فهو كما رأيت ينقل الأشياء وما يرافقها بدقة وتفصيل، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة.

امتازت لغته أيضا بالشعرية فابتعد عن الاستخدام المباشر للألفاظ، فولد الصور الفنية، التي حققت لسيرته أدبية عالية ارتقت بها إلى أفق الشعرية والجمالية: " كان القمر يطل على العاشقين بنوره الصافي، فيغلف الأجواء بسكون وطمأنينة عجيبة، ومن ثم آنست وحدتي، وأنا أردد كلمات جدك في ذاكرتي، وأحاول تطبيقها على الوجه الأمثل، فقد نجحت تجربتي في بذر القمح والأرز من قبل، وكانت مصدر إعجاب جدتك وجدك؛ لأن كل ذلك قد تم في ضوء النهار، لكن الوالد قد اختار الوقت لعلة دلني عليها بعد ذلك، وما علي إلا أن أسمع وأطيع، قسمت الأرض في ذهني قسمة عقلية كما أوصى، وأخذت طريقي في المسار الأول ثم الثاني ثم الثالث، أنثر حب البرسيم فآراه يقبّل الماء محدثا موجات صغيرة، كنت أسير على هداها، حتى لا أضع البذور على البذور، وعدت إلى البيت أرجف من شدة البرد، لكنني تدفأت بوجه أبي الذي أضاء إشراقا " [٢]

ويقول: " ولم يكن ينقصك إلا أن تصف الطريق الذي كنا نسير فيه، وقد اصطف الشجر من حولنا، وكأننا لم نكن نعيش في شبه الجزيرة العربية، وإنما في إحدى بقاع الأندلس الساحرة" [٣]

ويقول: " وطعم السعادة التي كنت أشعر بها كلما شممت رائحة الريف، أو سمعت همس الريف، أو رأيت طبيعة الريف الساحرة " [٤]

ويتحدث عن مشاعره وأحاسيسه تجاه الريف الذي يحن إليه باستمرار: " كنت أشعر بها وأنا أتناول غذائي بين حقوله الخضراء، وثمار زروعه اليانعة، ورائحة الشاي التي كانت تنبعث من

---

[١] – ابن الريف، ص ١٣.

[٢]– ابن الكاتب، ص ٥٩.

[٣]– ابن الكاتب، ص ٧.

[٤]– ابن الكاتب، ص١٠٢.

براده، فتحملها أنسام الريف إلى حيث تمتلئ بها رئتاي، فأحسها أطيب من رائحة أشهى شواء، وصوت السواقي وهي تدور في تؤدة، حاملة معها تاريخا لا ينسى لطفولتنا البريئة " [١]

ومن ذلك تصويره لمشهد الوداع لإحدى زميلات الدراسة وصديقات الطفولة في القرية: " تمتمت شفتاها بحروف لم أتبينها جيدا، وكأنها كانت تقول لي لقد ذبلت الزهرة يا صديق الطفولة، بعد أن وضعت لقاح الزهر في كل حقل عملت فيه من حقول القرية.

هذه هي رائحة الريف الصافية التي يشعر بها كل من كان له قلب، هذه هي الرائحة التي تظل عالقة بالورد حتى بعد جفافه، ورائحة تلك الفتاة الارستقراطية التي كانت إحدى علامات الطفولة العذبة وريفها الجميل في قريتنا الحبيبة؟، لقد رحلت منذ زمن بعيد، ربما هروبا من قسوة الحياة في القرية البائسة حينئذ، لكنها رحلت لتنفح بقعة أخرى نفحة من جمال ريفي لطالما مس البقاع القاحلة فاهتزت وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " [٢]

فأنت تشعر حين تقرأ وكأنك أمام قطع أدبية، محلاة بالصورة القرآنية الخالدة، وهي كثيرة في سيرة الدكتور/ بدران، منها أيضا: " وعدم رؤيته أياما معدودات، يتجرعها العاشق ولا يكاد يسيغها، حتى يرى وجه من يحب" [٣]، وقوله: " فلما بدأ الحفل واعتليت المنصة، وعشت القصيدة كما كنت أفعل، رأيتها ترجع البصر كرّتين تجاهي، ثم تديرهما بين الجمهور لتثبتهما مرة أخرى تجاهي" [٤]

ويمكن القول إن لغة عبد الحميد بدران لها حضورها وملامحها، حيث صب سيرته الذاتية في القالب الروائي، الذي يعتمد على السرد والتصوير، وإيجاد الترابط والاتساق الفني بين الأحداث، واستخدام الخيال استخداما هادفا في تجسيد الأحداث الحقيقية؛ بقصد تحقيق المتعة الجمالية في عمله الأدبي، ومن ثم فقد استخدم اللغة ذات الطابع التصويري والإيحائي الذي يعمل على تجسيد الأحداث ورسمها في حسن صياغة وجمال أسلوب حيث طغى الحس الروائي والفني والجمالي– في عرض الأحداث– على السرد الموضوعي الجاف؛ مما يؤكد التماهي والتداخل بين الجنسين السيرة الذاتية والرواية.

---

[١]– ابن الريف، ص١٩.

[٢]– ابن الكاتب، ص١١١.

[٣]– ابن الريف، ص٣٠.

[٤]– ابن الريف، ص٩٢.

الخاتمة

هكذا استطاع الأديب عبد الحميد بدران أن يعرض حياته الخاصة وتجاربه الذاتية، بطريقة درامية، ذات أبعاد ودلالات، فرصدت لنا دور الزمان والمكان، والأحداث التي أسهمت في بناء شخصيته، وتكوين عالمه النفسي، ورسمت لنا خيوطا متعددة من مراحل حياته، تشير في معظمها إلى ارتباطه واعتزازه بالريف وشوقه إليه، فجاءت سيرته الذاتية في حلة الرواية، ولعل هذا التداخل هو ما يشير إلى الصفاء، والدفء، والاطمئنان الذي يجده الأديب في الريف وفي ممارسة الكتابة، وفي ختام هذا البحث يمكن أن أذكر بعض النتائج التي توصلت إليها، وهي:

١- كشفت هذه الدراسة عن مدى التقارب الأجناسي بين السيرة الذاتية والرواية، وأن هناك قواسم مشتركة بينهما، كتتابع الأحداث، وصراع الشخصيات، وسلاسة التعبير ورشاقته.

٢- أظهرت الدراسة أن القالب الروائي هو الأرقى أو الشكل المناسب لترجمة حياة إنسان، فبغير الخيال والأدوات الفنية يتداخل الزمان والمكان، وتتبعثر الحوادث، ويتشتت القارئ، أما البناء الروائي فهو يضمن لكاتب السيرة الذاتية الانسجام والنظام، والتشويق والإثارة.

٣- أشارت الدراسة إلى إبداع الأديب الذي أفاد أن التداخل -هنا- كان تداخل تجاور، وتكامل، وبقاء، وجمال، وليس معناه الانقلاب على مبدأ النوع الأدبي، وتمييع نظامه، أو إنشاء نص بلا هوية.

٤- استطاع الأديب أن يوظف تقنيات الرواية بمهارة، فالتزمت سيرته بنمط فني وأسلوب سردي يغري القارئ بالاستمرار في قراءتها.

٥- كشفت الدراسة عن موهبة الأديب وقدرته على الحبكة والقص والتشويق، وإثارة القارئ وإغرائه، وذلك بما يملكه من خيال خصب، ولغة اقتربت من الشعر في مواطن كثيرة، وخاصة الصور الإيحائية.

والله من وراء القصد.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- ابن الريف، د. عبد الحميد محمد بدران، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٨م.
- ابن الكاتب، د. عبد الحميد محمد بدران، المؤسسة العربية للعلوم والثقافة، ط١، ١٤٤١ هـ / ٢٠١٩م.

ثانيا: المراجع:

- اتجاهات القصة المصرية القصيرة، د. سيد حامد النساج، ص٣١٣، مكتبة غريب، ١٩٨٨م.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، الناشر المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.
- تحت راية الاسلام، د. نجيب الكيلاني، ص ١٠١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢-١٩٨٢م
- تداخل الأنواع بين القاعدة والخرق (دراسة نظرية)، الدكتور لؤي علي خليل، مجلة جامعة دمشق- مجلد ٣٠، عدد ٣-٤ ،٢٠١٤م.
- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبد الدايم، ص٣٣-٣٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٥م، بتصرف.
- تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠- ١٩٣٨)، د عبد المحسن طه بدر، دار المعارف، ط٥، ١٩٩٢م.
- التفاعل في الأجناس الأدبية (مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة من القرنين الثالث، والسادس الهجري)، د. بسمة عروس، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ٢٠١٠م.
- تمظهرات التشكّل السير ذاتي، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، د. محمد صابر عبيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.
- رواية السيرة الذاتية في أدب توفيق الحكيم دراسة نقديّة تحليلية، إعداد سامر صدقي محمد موسى، رسالة دكتوراه جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين ٢٠١٠م
- سحابة صيف، د. عبد الحميد بدران، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م.
- سرد الذات -فن السيرة الذاتية، عمر منيب إدلبي ص٦٠، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- السرد في رواية السيرة الذاتية العربية، دراسة في البناء والتقنيات، ص٢١، فايز صلاح عثامنة، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الآداب، الاردن اليرموك، كلية الآداب، الأردن، بتاريخ/ ٢٠١٠/٧/٢١م. إشراف أ.د نبيل حداد
- السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي: فيليب لوجون، ترجمة وتقديم: عمر حلمي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

- السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، أمل التميمي، ص ١٩١، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ٢٠٠٥م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، د. شعبان عبد الحكيم محمد، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٥م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، ص٢٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات) خليل شكري هياس، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – ٢٠٠١م.
- السيميوطيقا والعنونة، جميل حمداوي، ص ٩٨ مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٥، العدد ٣، لسنة ١٩٩٧م.
- شعرية السرد، تحليل الخطاب السردي في مقامات الحريري، عمر عبد الواحد، دار الهدى للنشر والتوزيع.
- عندما تتكلم الذات، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. محمد الباردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق . ٢٠٠٥
- فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، د. عبد اللطيف الحديدي، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م بتصرف.
- فن السيرة، دكتور إحسان عباس، ص١٠٢، دار صادر، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، د عبد الملك مرتاض، ص١١، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.
- مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير ١٩٧٨م.
- المصطلح السردي: جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، مراجعة محمد بريري، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ط١، ٢٠٠٣م.
- معجم التعريفات (قاموس المصطلحات وتعريفات عمم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت/ محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، الإمارات، دبي، د ت.
- مقال: السيرة والرواية، تدخل الخيال لخيانة الواقع، أحمد رجب، بتاريخ ٢٠١٨/٥/١٩م، موقع https:middle-est-online.com
- وهج السرد (مقاربات في الخطاب السردي السعودي)، ص٩٥، حسين المناصرة، إربد، عالم الكتب الحديثة،٢٠٠٩م.

المحتويات

مقدمة..... – ٦١٣ –
التمهيد ..... – ٦١٥ –
(في معنى التداخل)..... – ٦١٥ –
المبحث الأول: عناصر السيرة الذاتية..... – ٦١٨ –
ميثاق السيرة..... – ٦١٨ –
أ– العنوان..... – ٦١٩ –
ب– الإهداء والتقديم:..... – ٦٢٠ –
جـ – ضمير المتكلم:..... – ٦٢١ –
د–النص: ..... – ٦٢٤ –
دوافع كتابة السيرة الذاتية لديه ..... – ٦٢٧ –
لماذا كتب الدكتور (عبد الحميد بدران) سيرته الذاتية؟..... – ٦٢٧ –
الصراع ونجوى الذات ..... – ٦٣٠ –
أولا: الصراع المادي:..... – ٦٣١ –
ثانيا: الصراع النفسي واللاوعي:..... – ٦٣٢ –
ثالثا: صراع العادات والتقاليد: ..... – ٦٣٥ –
رابعا: صراع الفقد والغربة:..... – ٦٣٧ –
خامسا: صراع التجربة والإبداع: ..... – ٦٣٨ –
الصدق والصراحة..... – ٦٤٠ –
المبحث الثاني: الميثاق الروائي..... – ٦٤٦ –
الحقيقة والخيال..... – ٦٤٨ –
الشخصية ..... – ٦٥٤ –
الزمــان ..... – ٦٥٧ –
المكان ..... – ٦٦٣ –
لغة روائية..... – ٦٦٧ –
الخاتمة..... – ٦٧٠ –
فهرس المصادر والمراجع ..... – ٦٧١ –